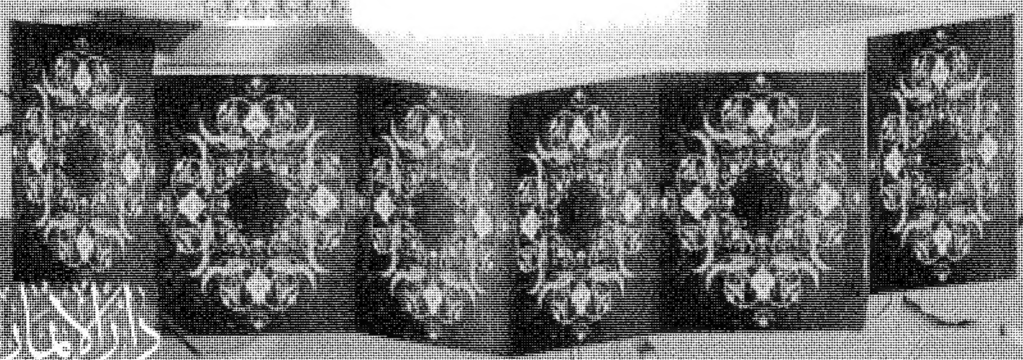
واحة الخلق العظيم

الرحمة



تأليف أم عبد الرحمن
ناريمان محمد فوزي العدل

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع

اهداءات ٢٠٠٢
دار الايمان

واحة الخلق العظيم

الرحمة

تأليف أم عبد الرحمن

مليحة مرعي العدل

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم



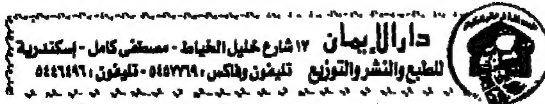




رقم الإيداع ٨٧٢٩ / ٢٠٠٢

الترقيم الدولى

977-331-086-6



دار الإيمان ١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
للطبع والنشر والتوزيع تليفون وفاكس ٥٤٥٧٧٦٩ - تليفون ٥٤٤٦٤٩٦
E-mail: dar_aleman@hotmail.com

مقدمة :

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فجعله شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وأنقذ به البشرية جمعاء حين « **نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب** » (١) ، فجاءت دعوته نوراً بدد الظلمات المتكاثفة ، إذ فتح الله به قلوباً غُلفاً ، وأسمع به أذاناً صُما ، وأنار به أعيُناً عميا ، فأضاء به السبيل ، وأقام به الحجة والدليل، وترك الناس بعده على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، ولا يناوئها إلا كل كفّار عنيد .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، رباه ربه فأحسن تربيته ، وأدبه فأحسن أدبه ، وجعل خُلقه القرآن ، وأمر الناس أن يهتدوا بهديه ويحتذوا خطاه ، وأن يقتفوا أثره ، فاللهم صل عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وتابعيه بإحسان إلى يوم الدين ... آمين .

أما بعد :

فقد وقفت على دياجير الحياة ، أعاني قسوة المشاعر الجافية ، ومرارة الأنا المدمرة ، التى تحطم فى طريقها من القيم والمُثل الرفيعة ما تصبح الحياة بدونه جسداً أرضياً لا روح فيه ولا ارتقاء ، أُبصر يُمنة فتكسرنى الغلظة والفظاظة ، وأُبصر يسرة فيريعنى الإنحلال والإباحية ، وأنظر أمامى فلا أكاد أستوضح عبر سحابات اليأس الكثيفة ، تلك الرؤى المستقبلية لمصير البشرية البائسة

تجيش الأحزان بصدرى ، ويئن القلب تحت وطأة ضرباتها الموجعه ، فتنبثق من تلك الأنات ضراعات تطلب الخلاص ، ،تلتمس إليه طريق ، متى الخلاص

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٨٦٥)

يارب ومن أين المبتدئ ؟ ، وإذ بنداء علوى يتردد فى القلب صداه ، ويترقرق فى العين نداه ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ [الذاريات : ٥٠] .

لمن النداء النورانى الرائع؟ ﴿ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[الذاريات : ٥٠]، صوت محمد ﷺ الشفيق الحانى ، أنضر بشير وأرفق نذير ، يتهادى عبر أثير الزمن فيضاً نورانياً يهدى خُطا الحيارى ويجلو درب التائبين ..

تنقشع ظلمة اليأس عن قلبى رويداً رويداً ، وتنساب فيه خيوط الفجر المشرق منذ ما يقرب من خمسة عشر قرناً من الزمان ، والذى عبثاً حاول أنصار الظلمات حجبه ولكن ... هيهات هيهات ... إذ يتفتق نوره الساطع روضاً زاهراً يتعانق نداه مع نسمات الفجر البكر ، فإذا به كحور العين متجدد البكارة ، متناهى الروعة ، متألق الشفافية ، تتهادى أنسامه العلوية إلى جداول النفس العطشى ، فترويها ، وتغسل عنها حيرة القلب ، وتطيبه بشذى عبيرها العبق ، وتلفه بأهداب السكينة ، فتطير به بأجنحة ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ ، حيث تقف به على باب « النذير المبين » ، إذ من هنا يبدأ المسير فرارا من براثن المهلكات إلى الله تبارك وتعالى ، أعظم مُبدئ وخير مُعيد .

من هنا نبدأ رحلة السياحة العلاجية فى رياض الأخلاق النبوية حيث صورة المؤمن الحق ، التى تخط ملامحها ريشة الأخلاق المحمدية ، كى تؤهله للعبودية الحقة لله تبارك ونعالى ... وها أنا أقترب من باب الروضة العظيمة ... أتقدم فى خجل ، أتردد فى وجل ، غير أن نفسى الباحثة عن الخلاص تستحث خطاى إلى هذا العالم الجليل كى تتخفف من مرارة الغربة ، والبعد عن الله تبارك وتعالي ، فبه تتتابع الخطى إلى الله عز وجل ... تُرایَ أستطيع التحليق فى هذا العالم الجاليل ؟.

أدق الباب ، أستفتح بسم الله ، لعل الله تبارك وتعالى أن يفتح لى مغاليق الدرب ، ويمن عليّ من فضله ، بتنسيق باقة نور وخلاص من تلك الواحة

الغناء ، ويقيني أنني لست أهلاً لهذا ، إذ أن جهابذة العلم ، وعمالقة الأدب ، وفرسان الكلمة ، هم أهله ومفاتيح خزائنه ، غير أني وإن كنت لا أجيد هذا الفن إلا أنني ربما أجيد تذوقه .

أدخل على استحياء ، واحة فيحاء ، أظلت البشرية من هجير اللاإنسانية الظالم ، وقومت انحرافات الفطرة ، فعالجت انتكاساتها ، وأعادت للعقل الإنساني قيمته الحقيقة التي منحه الله تبارك وتعالى إياها .

الروضة عظيمة ، جد عظيمة ، فهي متشابكة الأغصان ، مترامية الأطراف مجموعها أخلاق رسول الله ﷺ المزكاة من رب العزة جلت قدرته ، بقوله عز وجل : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم : ٤] .

كما أنها عنوان بعثته ﷺ ومضمون رسالته التي بُعث بها للعالمين « **إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق** » ، وكانت أخلاقه ﷺ هي الترجمة العملية للقرآن الكريم كما وصفته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بقولها : « **إن خُلق رسول الله ﷺ كان القرآن** » (١) .

أما مفردات تلك الأخلاق فهي أعظم من أن تحصى ، إذ كل فضيلة عُرفت فهي له فضيلة ، كيف لا ؟! وقد « اصطفاه الله من أكرم دوحة ، وتعهده في طفولته وشبابه ، إلى أن اختاره ليكون مبشراً ونذيراً ، فرباه أشرف تربية وأدبه أحسن تأديب » (٢) .

فكان كما قال ابن روحه رضي الله عنه :

لو لم تكن فيه آيات مبينة   كانت بديهته تنبك بالخبر

---

(١) رواه مسلم برقم (٧٤٦) .
(٢) من أخلاق النبي ﷺ ، د / أحمد الحوفي

فقد جمع كل صفات الكمال البشرى حتى لقبته قريش قبل البعثة بالصادق الأمين ، وكانت تلك الصفات الرائعة هى سبب يقين خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها بصدقه ، حين أخبرها خبر جبريل عليه السلام ، إذ أتاه فى الغار ، فكان أول ما قالت : « والله ما يخزيك الله أبداً » ، أصدرت حكمها لا عن تعصب لزوجها ، أو تملق له ، وإنما عن علم ويقين ، فعددت حيثيات حكمها حيث قالت: « **والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق** » [١] .

يا لها من أخلاق رائعة ، جعلت منه ﷺ شخصية لا تبارى ، أهلت صاحبها لحمل أمانة الدعوة والقيام بحقها ، فكان حقاً أمين الأرض على رسالة السماء .

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأحزاب : ٥٦] .

إن أخلاقاً رائعة كهذه لجديرة بأن تفتح أكمام العقول فتنساب فيضاً نورانياً يضىء الأرواح ويحيى القلوب ، وكلما تقادم بها الزمن لم تزدد مع الأيام إلا تألقاً وسناً ، وكلما أبحرت فيها الأفهام ، انسابت فى الأقلام لألاءً وضاءً ، فكانت تاريخاً ثرياً للمؤرخ الصدوق، وزاداً فقهياً لكل فقيه ورع، وعمقاً مستنيراً لكل مفكر أمين ، وسحر بيان وروعة بنيان لكل أديب أريب، وأجنحةً تحلق فى سماء الروعه والإبداع لكل شاعر تقى ، ومقومات الزعامة وحُسن التدبير لكل قائد مغوار ، وعلم الأولين والآخرين لكل عالم فذ ، ودعائم للتربية المثمرة لكل مربٍ فاضل ، وينبوع الحكمة الذى لا ينضب لكل حكيم لبيب ، ومنارة هدىً

(١) رواه البخارى ، باب كيف كان بدء الوحى

ودليل رشاد لكل سائر إلى الله عز وجل ، وطوق نجاة لكل عاصٍ يأمل فى الخلاص ، كما يجد فيها البسطاء ما يكفل لهم كرامة العيش ويقر لهم بحق الحياة .

وقد أطمعنى فى انتظام قلادة بديعة الفرائد من هذه الأزهار الثمينة الرقيقة ، التى تستمد جمالها من تعهد الله سبحانه وتعالى لها ، وإحسانه بها ، أن الأمة الإسلامية - ولله الحمد والمن - فى صحوة علمية مبشرة بكل خير ، غير أن الصحوة الأخلاقية لم تزل فى رقود ، وتحتاج إلى إيقاظها وإزاحة العلل عنها بعدما أصابها العطب المادى ، وطغت عليها الدنيا فأصبحت موجهة لتصرفاتنا وتعاملاتنا الشخصية والإجتماعية .

ولهذا كانت تلك الجولة فى روضة أخلاق رسولنا الكريم ﷺ محاولة - بقدر طاقتى المحدودة - لتذكير المسلمين بها علّ الأمة تستفيق وتحاول اللحاق بالركب الطيب المبارك .

ولعلنى أحوج الناس إلى تلك التذكرة ، فاللهم خلقنا بأخلاق رسولك الكريم ... أمين

ولعلنى لا أدعى الإحاطة - فى تطوافى هذا - بكل ما فى واحة أخلاق رسول الله ﷺ من أخلاقيات ، إنما طوّفت حول بعض المعانى لمجموعة من أخلاقه ﷺ مثل : الرحمة ، الحلم ، التواضع ، الحياء ، الصدق والأمانة ، الشجاعة ، الوفاء ، الكرم ، الإيثار ، الزهد .

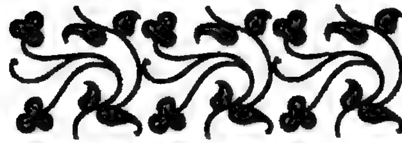
وموعدنا فى هذا الكتاب - إن شاء الله تعالى - مع خُلق الرحمه وما يحمله فى طيانه من أنبل المشاعر وأرق السلوكيات .

وقائدى فى تلك المسيرة المباركة ، هو حديث رسول الله ﷺ إذ هو أساس البناء وعمده ، والحديث النبوى الشريف على كثرة ما يتصمن من أحكام

شرعيه ، ومسائل فقهية ، ودروس تربوية ، ولطائف لغوية ، إلا أننى أتناوله من الجانب الذى يتصل إتصالاً مباشراً بموضوع جولتى تلك .

أما الجوانب الأخرى فلها أولوا التخصص كل فى مجاله ، وهم لها أكفاء . وأخيراً ...

فهذا جهد المقل ، ولأن الزاد قليل ، والعلم ضيئل ، فإنى أسأل الله العظيم أن يمنحنى زاداً يبلغنى المسير ، فاللهم هبنا من علمك ، وانفعنا به ، ووفقنا لتبليغه ، كما أسأل الله تبارك وتعالى أن يقبل منى هذا العمل ، وأن يجعله خالصاً صواباً فإن صاحبه التوفيق والسداد ، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وإن جانبه السداد !! فهذا لعمر الله منى ومن الشيطان ، وعلى إخوانى النصح والإرشاد ، وعلى الله الاتكال ، وبه الاستعانه ، وإليه المرجع والمآل ، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب الأول

الرحمة

[أ] بين يدي الباب .

الفصل الأول : رحمته ﷺ بالرجال .

المبحث الأول : فأقامني وعرف الذي بي .

المبحث الثاني : فظن أنا قد اشتقنا أهلنا ... وكان رفيقاً رحيماً .

المبحث الثالث : ففيهما فجاهد .

المبحث الرابع : كيف حال سعد بن عبادة ؟ .

الفصل الثاني : رحمته ﷺ بالنساء .

المبحث الأول : رفقاً بالقوارير .

المبحث الثاني : فهو خير لكما من خادم .

المبحث الثالث : وأي خير في العيش بعده .

المبحث الرابع : فوعدهن يوماً لقيهن فيه .

الفصل الثالث : رحمته ﷺ العصاه .

المبحث الأول : أطعمه أهلك ... أطعمه أهلك .

المبحث الثاني : لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم .

المبحث الثالث : أتشفع في حد من حدود الله ! .

بين يدي الكتاب :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

كم أنت رحيم أيها الفجر المشرق بعد فظاظة ليل طويل ، كم هو شفيق نورك الذى يجلو ظلمة الدرب ، ويزيح الران عن القلوب ، ويجلو غشاوة العيون، فإذا هى مبصرة بنور الله .

كم عطوف هو قلبك الذى يضم المرتجفين لينفض عنهم قسوة السقيع ، ما أطيب نداك ينزل على الأرض الجدباء ، فتهتز وتربو ، وتنبت من كل رائع روضاً بهيجاً ، ما أروع روضك الحانى ، يضم اللائذين به من صحراء التيه ، وحدب الطريق ، وها أنا آوى إليه ، فما أدفأ المأوى وما أحنى الملاذ .

وأول ما يؤثر اللب ، ويبهر العين فى تلك الروضة الغنّاء ، ويملأ على القلب شغافه هى دوحة الرحمة ، إذ أنها أكثر دفئاً ، وأنضر خضرة ، وأوفر ظلالاً ، وأنعم ملمساً ، يحتمى بها الإنسان ، فتهدهد المشاعر وتنميها ، وتلثم الفكر فتنعشه ، وتحتضن القلب فتحييه .

« والرحمة مشتقة من الرحم ، وهى القرابة وأسبابها ، وأصلها جميعاً الرِّحِم ، وهو بيت الولد » (١) ، ولهذا فخليق بالإنسانية أن تتخلق بها ، إذ أصل الإنسانية رحم واحد ، وهو رحم حواء عليها السلام .

والرحمة كلمة نورانية ، حروفها جد رقيقة ، لكنها تحمل بين حناياها

---

(١) من أخلاق النبى ﷺ ، د / أحمد الحوفى

ما يعجز الفكر عن الإلمام به ، وما تعجز الكلمات عن التعبير عنه ، غير أن ظلالها تنقش فى النفس معانٍ رائعة ، وأروعها استنقاذ المخلوقات من الهلكة ، إذ توجب على البشرية طعاماً للجائع ، ولباساً للعارى ، وحصانة للضعيف ، ووقاراً للكبير ، وشفقة على الصغير ، وصونا لماء الوجه ، واحتراماً لإنسانية الإنسان ، ورفقاً بكل مخلوقات الله .

فهى رحم يتخلق فيها المجتمع الإنسانى ، حتى يصبح تام الخلقة مكتمل البنيان ، لهذا فالرحمة دعامة قوية فى بناء الفرد والمجتمع ، إذ تربى الفرد على أعلى مستوى من الانسانية ، وتربى المجتمع على قدسية التراحم والحنو والرأفة ، فالفرد من رحم المجتمع فى قرار مكين ، فله حق البنوة ومقتضياتها ، وللمجتمع على الفرد بر الأبوة ، وما تتطلبه من خفض الجناح والإحسان ، تلك هى الرحمة كما أرادها الله تبارك وتعالى .

إن فرداً مَنَّ الله تبارك وتعالى عليه بنصيب وافر من الرحمة لهو قيمة فى نفسه ، نفيس فى معدنه ، راقية إنسانيته ، يتعدى خيره ليضم كل ما حوله من مخلوقات ، ومجتمع منّ الله تبارك وتعالى عليه بهذا القدر الوافر من الرحمة لهو مجتمع متعاطف ، متآلف النسيج ، قوى البنية ، مثاليّ فى رقته وشفافيته وروحانيته ، وفرد يربى على ذلك المستوى الرفيع ، ومجتمع يصاغ تلك الصياغة الرائعة ، لابد وأن يصنع على عين الله تبارك وتعالى ، إذ إليه منتهى صفات الكمال والجلال والجمال المطلقة ، فيهب فضله منها لمن يشاء .

وقد اقتضت رحمة المطلقة – تباركت أسماؤه – أن تفيض على جميع مخلوقاته ليتراحموا فيما بينهم .

فأخذ كلٍ منهم بنصيب حسب استعداد جهاز التلقى فيه ، فمستكثر ومقل ، ومنتفع ومعطل ، وكلما كان نصيب الإنسان منها أوفر ، إرتقى بإنسانيته ، فكان أرقى شعوراً ، وأكثر تواضعاً ، وأنبل خلقاً ، فيصبح أخفض

جناحاً وآمن غائلةً ، وأندى عيناً ، وأرحب صدراً ، وأرجى لرحمة الله عز وجل ، ولهذا فقد خلّق الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم ﷺ بهذا الخُلق العظيم ، فكانت رحمته نسيجاً فى بنية شخصيته ﷺ ، بل خلصت إلى عظمه ونخاعه ، فكان بحق الرحمة المهداة للمخلوقات جميعاً ، إنسهم وجنهم ، طيرهم وحيوانهم ونباتهم ، بل وحتى للجمادات ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

ولا يمكن لموقف ولا لعدة مواقف أن تبين قدر ما من الله سبحانه وتعالى به على رسوله ﷺ من الرحمة ، إذ صاغه منها ، فكان عطاؤه رحمة ، ومنعة رحمة ، وكلامه رحمه ، وصمته رحمة ، وحربه رحمه ، وسلمه رحمه ، وكله رحمة ﷺ .

مقام يطول البحث فيه ولا تُدرك جوانبه ، لكن حسبنا من النجوم النيرات لألاءها ، ومن العبير قبساً من طيب نفحاته ، ومن النهر الفياض شربة هنيئة ، تطفى الظمأ ، وتجدد فى القلب الحياة ، فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **إذا صلى أحدكم الناس فليخفف ، فإن فيهم الضعيف والسقيم والكبير وإذا صلى لنفسه ليطول ما شاء** » [(١)] .

الصلاة جنة الله فى أرضه ، يغتسل فيها القلب من كل شائبة تعكر صفاءه ، ويلوذ بها الجسم من متاعب السعي وأثقال الحياة ، ويصل فيها صفاء الذهن منتهاه ، إذ تتصل فيها الروح بالخالق العظيم سبحانه وتعالى، اتصالاً نورانياً تنفصل به عن كل ما هو أرضى معتم إذ تسعد بلقائه ، فتحظى منه بالمناجاة ، وتنهل من فيض عطائه ورحمته .

---

(١) البخارى باب إذا صلى لنفسه فليطول ما شاء ومسلم باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة .

لحظات جليلة المقام ، علوية النفحات ، جلالها الخشوع والخضوع ، وبهاؤها الخوف والرجاء ، تنبثق فيها رحمة تحتضن الكون الفسيح ، وتفيض على الضعيف والسقيم والكبير وذى الحاجة ممن يصلى خلفك يا عبد الله ، إذ رق عظمه ، وقل احتماله ، فلم يقو على طول المكث فى الصلاة ، لا تسترسل يا عبد الله ظنا منك أنك تسمو بالقوم إلى ملكوت الله سبحانه وتعالى ، فإذا مشقك عليهم تهوى بهم فى جب سحيق من الضجر والمعاناة ، وربما الإحجام عن صلاة الجماعة ، فتفسد من حيث أردت الإصلاح .

إن الرحمة يا قائد الركب إلى الله تجعلك - على قوتك - تعالى معاناة الضعيف فتحمل عنه ضعفه ، وتجعلك - على صحتك - تعانى سقم السقيم فتخفف ما استطعت من ألمه ، وتجعلك - على شبابك - تحمل عن الشيخ وطأة السنين ، وترحم أخاديد الزمن فى الجسم الواهن ، فترفع عنه حرج المعاناة ، وقسوة الشيخوخة ، إذاً ياعبد الله : خفف صلاتك بالناس من أجل هؤلاء الذين تجمل يهم الرحمة ، فتلك رحمتك بهم ، ثم صل ما شئت لنفسك طولاً ، إذا انفردت بها تناجي بالإخلاص ربك ، وتدفع ظلم الرياء عن قلبك ، فتلك رحمتك بنفسك .

توجيه ملؤه الرحمة بالمؤتمين بك أيها الإمام التشقيق ، غير أنه من قبل رحمة بك أنت ، إذ الراحمون أجدر برحمة الله تبارك وتعالى . ولإن كان رسول الله ﷺ يدعو إلى التخلق بخلق الرحمة ، فإنه ﷺ كان القدوة العملية لأصحابه خاصة ، وللبشرية عامة ، ذلك أنه لم يك ليخالف قوله عمله ، بل كان أسبقهم لكل خير يدعو إليه ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١) ﴾ [التوبة : ٢١] .

ومما يفت الكبد ، ويغص الحلق أن ترزأ الدعوة بقله من قوالين مبهرين يسوقون الخطب الرنانة ، والمواعظ البليغة ، حتى ليرسم لهم السامع فى مخيلته صورة تقترب من المثال ، بيد أن واقعهم العملى يهدم فى لحظة ما بنوه بملء

الأفق من الكلمات ، فيحدث فى بعض النفوس الهشه انتكاسة منكرة ، إذ يظن هؤلاء أن الخلل فى المنهج نفسه ، لا فى الشخص الداعى إليه ، هؤلاء المفوهون هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة .

عن أسامة بن زيد رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « **يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار ، فتندلق أقتابه ، فيدور كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون : يا فلان ! ما شأنك ؟ ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه** »[1] .

هؤلاء الذين خانهم العقل ، فخانوا العلم ، فاستحقوا إنكار الله سبحانه وتعالى عليهم ، وتأنيبه لهم بقوله تعالى : ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة : ٤٤] .

فالله الله أيها الدعاة إلى الله ، الله الله فى دين الله ، الله الله فى أمة خير خلق الله ، الله الله فى أنفسكم ، فلكم الأسوة الحسنة فى رسول الله ﷺ ، حيث كانت دعوته إلى كل خير سلوكاً قبل القول ، وعملاً قبل الأمر ، واجتناباً قبل النهى ، فكانت بصدق الجوارح وصدق اللهجة ، وصدق الجنان .

وها هو حين يدعو إلى خلق الرحمة ، فلهو الرؤوف الرحيم ، قد عمت رحمته ﷺ المؤمنين ، رجالاً ونساءً وأطفالاً ، أحراراً وأرقاء ، طائعين وعصاه ، فكان بحق كما وصفه الله تبارك وتعالى : ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

بل تعدت رحمته ﷺ الإنسان إلى الحيوان والجماد ، بل إلى ما هو أدنى

---

(١) رواه مسلم برقم (١٩٠٥) .

من ذلك ، إلى غير المسلمين من الكفار والمشركين والمنافقين ، تصور هذا لنا جلياً سيرته العطرة ، التى يمتد عبقها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، والتى نقلها لنا عدول أمناء ، هم صحابته الكرام رضى الله عنهم ، « وروى البخارى ومسلم والترمذى » عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : « كنا مع النبى ﷺ فى دعوة ، فرفع إليه الذارع - وكانت تعجبه - فنهس منها نهسه وقال : أنا سيد الناس يوم القيامة ، هل تدرون مم ذاك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، فيبصرهم الناظر ويسمعهم الداعى ، وتدنو منهم الشمس ، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس : ألا ترون إلى ما أنتم فيه ، إلى ما بلغكم ، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض : أبوكم آدم ، فيأتونه فيقولون : يا آدم : أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، وأسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ؟ فقال : إنى ربى غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده ثمله ، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيت ، نفسى ، نفسى ، نفسى ، إذهبوا إلى غيرى ، إذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحاً ، فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وقد سماك الله عبداً شكوراً ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما بلغنا ؟ ألا تشفع لنا عند ربك ؟ فيقول : إن ربى غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد كان لى دعوة دعوت بها على قومى ، نفسى ، نفسى ، نفسى ، إذهبوا إلى غيرى ، إذهبوا إلى إبراهيم ، فيأتون إبراهيم فيقولون : أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا إلى ربك ، أما ترى إلى ما نحن فيه ، فيقول لهم : إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنى كنت كذبت ثلاث كذبات ... فذكرها ... نفسى

، نفسى ، نفسى ، إذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى موسى ، فيأتون موسى فيقولون : أنت رسول الله فضلك برسالاته وبكلامه على الناس ، اشفع لنا إلى ربك ، أما ترى ما نحن فيه ؟ فيقول : إن ربى قد غضب غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنى قد قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها ، نفسى ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى عيسى ، فيأتون عيسى ، فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وكلمت الناس فى المهد ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول عيسى : إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، - ولم يذكر ذنباً - نفسى ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا إلى غيرى ، إذهبوا إلى محمد ﷺ - وفى رواية - فيأتون ، فيقولون : يامحمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء ، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فأنطلق فآتى تحت العرش ، فأقع ساجداً لربى ، ثم يفتح الله عليّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلى ، ثم يُقال : يا محمد إرفع رأسك ، سل تعطه ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسى ، فأقول : أمتى يارب ، أمتى يارب ، أمتى يارب ، فيقال : يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ، ثم قال : والذى نفسى بيده ، إن ما بين المصراعين من مصارع الجنة كما بين مكة وهجر ، أو كما بين مكة وبصرى ، وفى كتاب البخارى : كما بين مكة وحِمْيَر » (١) .

فهذه رحمته بالناس جميعاً يوم الحساب بتعجيل الحساب ، وكذلك رحمته بأمته فى شفاعته فى أهل الذنوب من أمته ﷺ .

---

(١) القيامة الكبرى ، د / عمر سليمان الأشقر .

الفصل الأول

رحمته ﷺ بالرجال

المبحث الأول : فأقامنى وعرف الذى بى .

المبحث الثانى : وظن أنا قد اشتفقنا أهلنا .

المبحث الثالث : ففيهما فجاهد .

المبحث الرابع : كيف حال سعد بن عباده .

الفصل الأول :
رحمته ﷺ بالرجال

المبحث الأول
« فأقامنى وعرف الذى بى » .

هذا هو أبو هريرة رضي الله عنه يكشف قليلاً عن خزانة نفائسه ، فإذا بها تفوح أريجاً يحيى القلوب ، ويصقل العقول ، وينير طريق السائرين إلى الله ، وها هى قطرة من فيض نداه تقص علينا رائعة من روائع رسول الله ﷺ – وكل حياته رائعة – حيث يقول :

« أصابنى جهد شديد ، فلقيت عمر بن الخطاب ، فاستقرأته آية من كتاب الله ، فدخل داره ففتحها عليّ ، فمشيت غير بعيد ، فخررت لوجهى من الجهد والجوع ، فإذا رسول الله ﷺ قائم على رأسى **فقال : يا أبا هريرة** ، فقلت : لبيك يا رسول الله وسعديك ، **فأخذ بيدى فأقامنى وعرف الذى بى ، فانطلق بى إلى رحله فأمر لى بعس من لبن** ، فشربت منه ، **ثم قال : عد فاشرب يا أبا هر** ، فشربت ، **ثم قال : عد** ، فعدت فشربت حتى استوى بطنى فصار كالقدح » (١) .

بأبى أنت وأمى ونفسى التى بين جنبى حبيبى يارسول الله ، أُمةٌ من المشاعر والرقة ، عالم من المروءة ومكارم الأخلاق ، لم يكن فى حاجة أن يبثه صاحب ألم شكواه ، بل يغوص بإحساسه المرهف فى أعماق النفوس ، فيترجم بذكائه

---

(١) أخرجه البخارى ، كتاب الأطعمة .

المتفرد ما يرتسم على صفحات الوجوه ، ويحتضن بقلبه الحانى كل القلوب ، فتبثه لواعج الصدور ، وإن لم تنطق الألسنة .

وها هو أبو هريرة رضي الله عنه قد اعترض طريق عمر رضي الله عنه ، يستقرأه آية من كتاب الله - ما هو بأقرأ لها منه - ولكن عساه يستشف من السؤال الذى سأله أبو هريرة رضي الله عنه سؤاله الذى لم يسأل ، وأبت فطنة الفاروق على وفرتها ، إدراك مطلب الرجل الحقيقى ، وأبت عفة أبى هريرة أن تفصح عن مقصده الحقيقى الكامن بين طيات سؤاله ، ومضى الرجلان ، هذا لداره ، وذاك لجوعه ، وألمه ، وضعفه .

مضى أبو هريرة رضي الله عنه خطوة ، أو خطوات ضعيفة مرتعده ، أبى عليه ألم الجوع والجهد المضى بعدها، فخر لوجهه جسداً منهك القوى مرتعد الأوصال ، وإذ بالعناية الإلهية تستنقذه من براثن ذلك الوحش الفاتك ، إنها الرحمة المصاغة بشراً ربانياً ، إنه رسول الله ﷺ قائم على رأسه ، يرسل صوته الحانى ليبعث الأمل فى القلب المجهد الذى كادت تخبو فيه الحياة .

يا أبا هريرة نبرات دافئة الجوانح ، ودُودَة الملمس ، ينسى المُعنّى معها كل ألم ومرارة ، وتنتعش الروح الذابلة بها رغم التصاق الجسد المنهك بالأرض ، وتنطلق الفرحة من أعماق جُب سحيق : « لبيك رسول الله وسعديك » ، بل لبيك أنت يا أبا هريرة وسعديك ، فقد ظفرت ببغيتك التى ابتغيت ، وانحنى العظمة الشامخة ﷺ فى تواضع رحيم ليقيم أبا هريرة رضي الله عنه .

ومن لها غير رسول الله ﷺ ، الذى أَحَسّ ألم أبى هريرة ، وترجم ما ارتسم فى عينيه ، فجنبه مؤنة السؤال ، وذل الرجاء ، فانطلق به إلى رحله ، وأمر له بإناء من لبن ، وشرب الرجل ما يطفئ لهيب الجوع ويخمد سعاره ، غير أن أدبه قد حال دون استرساله فى الشرب رغم حاجته إليه ، وما كان هذا ليخفى على رسول الله ﷺ من أصحابه وهو الذى رباهم على عينه ، ودرس عوالم

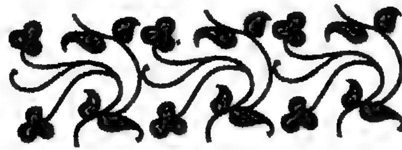
نفسياتهم - فقال ملاطفاً : « عد فاشرب يا أبا هر » ... يا لها من مداعبة رقيقة .

ما أحلى أن يرخم الإنسان اسم صاحبه ، فينمو بينهما الود الذى يذيب الحواجز النفسية ، ويرفع الحرج ، وقد كانت هكذا تلك المداعبة الرقيقة ، ثم قال رسول الله ﷺ « عد » ، لم يعد للنداء اللفظى مكان ، بل هو الحديث الوجدانى المباشر ، وما كان لقلب أبى هريرة رضي الله عنه إلا أن يسعد بالرحمة المنسابة من قلب رسول الله ﷺ فشرب الثالثة حتى استوى بطنه إيذاناً بالإكتفاء !! .

إن منتهى الكفاية عند الصحابة الكرام رضى الله عنهم هو استواء البطن لا بروزها وتشحمها ، فهم ما عرفوا يوماً البطنة والبشم ، ورد أبو هريرة رضي الله عنه بجوعه ووهنه ومرارة نفسه ، وصدر بريِّه وقوته وطيب خاطره ، ومزيداً من الحب لرسول الله ﷺ ، ملك عليه شغاف قلبه ، وكل خلية من خلاياه التى انتعشب بعد ذبول وصحت بعد سقم .

هذه هى الرحمة النبوية الدافئة ، وتلك ثمارها النضرة الغضة الرائعة ، وتلك ظلالها الحانية الرحيمة ، فهل من مستظل ، وهل من مؤْتسٍ ؟ .

وفتى خلا من ماله ... ومن المروءة غير خال
أعطاك قبل سؤاله ... فكفاك مكروه السؤال [1]



[1] أدب الدنيا والدين لأبى الحسن البصرى

المبحث الثانى
« فظن أنا قد اشتقنا أهلنا ... وكان رفيقاً رحيماً »

إن رسول الله ﷺ وهو يبنى النفوس ، ويرتقى بالروح ؛ ليطوف بها فى آفاق الجنة ، لم يهمل متطلبات الجسد المادى ، وحاجاته الغريزية ، بل أقرها ، ثم هذبها ، وارتقى بها إلى أعلى مراتب الإنسانية الطاهرة النظيفة ، وكان ﷺ أحرص ما يكون على سكن النفوس ، ودفء المشاعر ، وصحة الأبدان ، ليحيى الفرد حياة كريمة ، أُسُسها العفاف والسمو والترفع ، وليظل المجتمع نظيفاً طاهراً آمناً .

ورغم اهتمام رسول الله ﷺ بتربية جميع فئات المجتمع إلا أن اهتمامه بالشباب كان أوفر ، لما لدى الشباب من الطاقات والطموحات ، وكان اهتمامه ﷺ بتهذيب رغبات الشباب آكد ، ذلك أن رغباته أكثر إلحاحاً ، وشهواته أسرع استثارة ، وجَلَدهَ فى البعد عن الزوج والولد سرعان ما تذيبه حرارة الشوق إليهم ، وشدة الحاجة إلى دفء البيت وبسمة الوليد وعبق الأسرة .

ومعنا الآن قطرة ندى من فيض رحمته ﷺ ترسم لنا ملمحاً رائعاً من اهتمامه ﷺ بالشباب ورحمته بهم ، « عن أبى سليمان مالك بن الحويرث قال : أتينا رسول الله ﷺ ونحن شببه متقاربون ، فأقمنا عنده عشرين ليلة ، فظن أنا قد اشتقنا أهلنا ، وسألنا عمن تركنا من أهلنا ، فأخبرناه ، وكان رفيقاً رحيماً فقال : ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم ، وصلوا كما رأيتمونى أصلى ، وإذا حضرت الصلاة ليؤذن لكم أحدكم ، ثم ليؤمكم أكبركم » [(١)] .

---

(١) صحيح البخارى ، باب رحمة الناس والبهائم ، كتاب الأدب .

باقة زهور عطرة ، فى أوج التفتح والنضرة والعنفوان ، جاءت بكل حماساتها وطموحاتها ، وقد شقت بيداء الظلام ، وصولاً إلى فيض النور المنبثق فى أفق طيبة المباركة ، ثار الشباب على جاهليتهم وموروثاتهم الصدئة ، ومضوا إلى الحق تحدوهم الرغبة فى الخلاص المنعقد بيد رسول الله ﷺ ، جاءوا طائعين راغبين آملين فى سنا الحق ، ليزهقوا به ضلال الباطل الذى عاشوا به حياة أقرب إلى الموات .

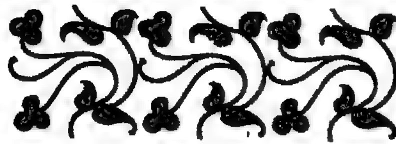
جاءوا شببة متقاربين ، آمالهم واحدة ، آلامهم متقاربة ، وإرادتهم صادقة فى هدم كل ما هو جاهلى عفن ، وبناء كل ما هو بنّاء فاضل ، تركوا الأهل والولد ، والتجارات والعَرَض ، وجاءوا مؤمنين ، متعلمين مقتضيات الإيمان ، وأقاموا ينهلون من ينبوع الحكمة الذى لا ينضب ، ويستضيئون بنور الحق الذى لا يخبو ، ويحلقون فى أثير النبوة الربانى ، عشرون ليلة كانت أجمل ما فى حياتهم ، إذ عاشوا فى رحاب رسول الله ﷺ يرتوون من علمه ، ويتأدبون بأدبه ، ويستكثرون من خيره ، مغتبطة به قلوبهم ، سامية به أرواحهم ، غير أن شعوراً ما بدأ مع الوقت يتسرب على استحياء قلوبهم ثم يرتسم على صفحات أعينهم ، ثم يتوارى خجلاً خلف أجفانهم ، فلا يكاد يحسه من يخالطهم ، لكن رسول الله ﷺ قد أدرك ما يدور فى سراديب مشاعرهم ، وإن توارت خلف جلدهم .

أقام الشبان عند رسول الله ﷺ عشرين ليلة ، هى فى قياس القلب المحب لحظة مضت أو تكاد ، غير أنها زمن طويل إذا قيست بميزان الغربة عن الأهل والشوق للقياهم ، أدرك رسول الله ﷺ حقيقة الصراع بين رغبتهم فى البقاء معه ، وقوة الحنين للأهل والديار ، وكان لابد أن يحسم ذلك الصراع بطريقة تجمع لهم منفعه البقاء والرحيل معاً ، فبادر بسؤالهم فى ود بالغ ، وشفقة حانية عمن تركوا من خلفهم ، فتتابعوا يخبروه بشوق بالغ ، فبثوه لواعج

صدورهم وشواغل عقولهم ؛ فكأنى بأحدهم يخبر عن تركه لزوجه العروس ، وآخر يصف ضعف أمه وقلة صبرها على فراقه ، وثالث يخبر عن طفله الذى ربما ولد الآن ، ورابع يذكر أباه المريض ومدى حاجته إليه ، وهكذا تتدافع الأخبار عن الأهل والديار فى شوق ولهفه ، وكان ﷺ رفيقاً رحيماً ، لهذا قال لهم : « ارجعوا » - غير راغب عنهم ، ولكن رحمة بهم وبمن خلفهم - .

عودوا راشدين ، تحدوكم مشاعركم الفياضة نحو ذويكم ، وتظلكم عناية الله ، ويحرصكم إيمانكم الغض الرطيب ، ولا تشغلكم أموالكم وأولادكم عن أمور دينكم ، بل أقيموا الدين فى أهليكم و « صلوا كما رأيتمونى أصلى » غير مبدلين ولا محدثين ، ها أنتم أيها السعداء قد أصبحتم أصحاب رسالة ، وحاملى دعوة الله بتكليف من رسول الله ﷺ إلى أهليكم ، فخذوا الرسالة بحقها ، وقوموا عليها خير قيام ، واعلموا أن الصلاة لوقتها ، فارفعوا التكبير فى ربوع بلادكم ، ثم لا تتعالوا بعلمكم على أحد ، ولا تستأثروا بالفضل لأنفسكم ، واجمعوا الناس حولكم ، واهدوهم الخير الذى أهداكموه رسول الله ﷺ ، واحفظوا لكبيركم حق السنين عليكم .

عاد الشيبة إلى أهليهم راشدين موفقين ، جامعين لخيرى الدنيا والآخر ، فصلى اللهم وسلم على من أحاط الأسرة المسلمة برباط الله المقدس ، الذى لا تنفك عراه أبداً ، بل تقوى فى الله وتزداد .



المبحث الثالث
ففيهمـــا فجاهـــد

الجهـاد ذروة سنام الدين ، مجـد المسلمين وعـزهم ، وجنات تفـتح للمجاهدين أحضانهـا ، إذ الجنة تحت ظلال سيوفهم ، خيل الله المنطلقة بمشاعل الهدى والنور ، ليهدى بها الله عز وجل الأمم إليه - أو ترد عن الدين غوائل المتربصين به كل دائرة ، لتكون كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا .

وفى الجهاد إحدى الحسنيين ، إما النصر والغنيمة والعزة والمنعة ، وإما الشهادة والجنة والشافعة للأهل والولد ، وفى كلٍ عز الإسلام ورفعة المسلمين .

ولإن كان رسول الله ﷺ قد أشفق من دبيب البعد والإغتراب عن الأهل إلى مشاعر الشباب الوافد إليه ، ومعاناة من وراءهم من أهل وعشيرة فى السلم ، فلربما فى حال الحرب والجهاد ما يبرر بعد الرجل عن الأهل إنخراطاً فى الزود عن حياض الدين وبناء مجد المسلمين ، غير أن رسول الله ﷺ لم يكن ليهمل تلك المشاعر عامة ، ومشاعر الأبوين خاصة - حتى فى تلك الأوقات الحرجة - وذلك لحاجة الأبوين المادية والنفسية والصحية للأبناء .

تتجلى لنا تلك الحقيقة الرائعة عبر حديث ابن عمر رضى الله عنهما حيث يقول : « جاء رجل إلى النبى ﷺ يستأذنه فى الجهاد ، **فقال : أحي والدك** ، قال : نعم ، **قال : ففيهما فجاهد** » [(١)] .

رسـول الله ﷺ يدعـو إلى الجـهـاد ، ويرغب فـيـه ، ويصف مـا عند الله

---

(١) صحيح البخاري ، باب الجهاد بإذن الأبوين ، كتاب الجهاد والسير .

للمجاهدين من أجر ومثوبه ، ثم إنه كقائد للجيش المنطلق ؛ يجلو الظلام الجاثم فوق صدر البشرية ويعمل على كسر الأقفال الصدئة المنغلقة بها قلوب الكفرة والمشركين ، ليسُرُّه أن يزداد عدد الجيش وعدته - كسبب من أسباب النصر والتمكين - وانضمام جندى لهذا الجيش المبارك يثلج صدر القائد العظيم ، لا سيما والجندى جاء طائعاً ، راغباً فيما عند الله عز وجل ، مترفعاً عن زينة الحياة الدنيا مؤثراً رونق الحور العين ، على فتنة الحور الطين .

جاء الرجل بعلو همته ، وسمو غايته إلى القائد العظيم ﷺ يستأذنه فى الجهاد ، وشعر رسول الله ﷺ أن وراء الرجل ما يؤرقه ، وأنه رغم تطلعه إلى السماء ، فإن شيئاً ما يجذبه إلى الأرض ... ترى ما هو ؟ ...

أهو المال ؟ ... فما عند الله خيرٌ وأبقى .

أهى الزوجة ؟ ... ففى الشهادة ثنتان وسبعون زوجة من الحور العين .

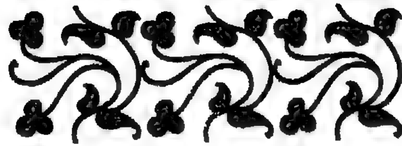
تراه الولد ؟ ... فما كان الله ليضيع ولده وهو التقى المجاهد الصادق .

السبب أقوى إذاً من تلك الأسباب - على قوتها - والمسئولية أثقل وآكد ، وهنا كان السؤال الذكى الرفيق : « أحي والداك » ، أصبت الحق يا من لا ينطق عن الهوى ، نعم يارسول الله ، وهنا أقره رسول الله ﷺ على الجهاد ، غير أنه عدّل وجهته « ففيهما فجاهد » .

جاهد سعى الحياة ونصبها من أجلهما ، جاهد ألم الفراق فى قلبهما إن - أنت تركتهما - جاهد الفقر والخوف والضعف بغزوهما - إن أنت فارقتهما - احملهما فى قلبك ، كما حملاك فى أحشائهما ، اتعب يومك فى تحصيلّ رزقهما ، كما أتعبا سنيهما فى تحصيل رزقك ، اسهر ليلك لراحتهما ، كما أسهرا عمرهما لراحتك ، ارحم ضعفهما كما أنفقا قوتهما ليرتوى عودك ويشتد ، فكم أروياك نضارة شبابهما ، ولكم أشبعاك حصاد

سعيهما ، وكم أراحاك بنصبهما ، ولطالما زرعاك أملا فى دربهما ، وارتقباك تكبر شيئاً فشيئاً ، حتى إذا جاء وقت إثمارك كنت أنت روضتهما التى يغتذيان بثمارها ، وينتعشان برحيقها ، وينعمان بظلها ، إرجع إليهما ، وامسح عن قلبيهما بصمات الزمن وتعب السنين ، احمل عن كاهلهما ارتعادات الضعف وعجز الشيخوخة ، امح عن خاطرهما خوف الفراق ومرارة البعد عنهما .

ما أرحمك ، وما أرهف مشاعرك ، وما أنبل خلقك ، سيدى يارسول الله ، عاش بين أصحابه نوراً فياضاً يستقون منه شفافيتهم ، وحكمةً بالغة يستمدون منها رجاجة عقولهم ، وواحة يلقون بين جنباتها متاعبهم وأثقالهم ، ونبعاً لكل فضيلة وحسن خلق وروعة أدب ، فكان صفاء نفوسهم وعلو همتهم ، وراحة ضميرهم ، ومعلم دربهم ، وخلاص روحهم ، ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .



المبحث الرابع
كيف حال سعد بن عبادة ؟

خالط رسول الله ﷺ صحابته الكرام خير مخالطه ، وعاشرهم ألطف معاشرة ، فآكلهم ، وجالسهم ، وأجاب دعوتهم ، وعاد مريضهم ، وشيع ميتهم ، واستغفر لمذنبهم ، وتجاوز عن مسيئهم ، وبشر طائعهم ، خالطهم فى حب فياض ، تواضع جم ، ورحمة بالغة ، وسخاء يد ، ورضا نفس ، وها هو ﷺ فى موقف من أسمى مواقفه - وكل مواقفه أسمى - جمع فيه بين الحب والحنان ، والعظمة والتواضع ، والشفقة والرحمة ، ورقة القلب وفيض المشاعر ، - ما لا يمكن لقلم أن يعبر عنه - غير إنه إحساس يسيطع فى جوانب النفس ، ويتدفيق فى شعابها أملاً فى المحاولة .

فعن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال : كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ إذ جاء رجل من الأنصار فسلم عليه ثم أدبر الأنصارى ، فقال رسول الله ﷺ : « **يا أخا الأنصار ، كيف حال سعد بن عبادة ؟** » ، فقال : صالح ، **فقال رسول الله ﷺ : من يعوده منكم ؟** » فقام وقمنا معه ، ونحن بضعة عشر ما علينا نعال ولا خفاف ولا قلانس ولا قمص ، نمشى فى تلك البساخ حتى جئناه فاستأخر قومه من حوله حتى دنا رسول الله ﷺ وأصحابه الذين معه » ، وفى رواية أخرى : « **فبكى رسول الله ﷺ ، فلما رأى القوم بكاء رسول الله ﷺ بكوا فقال : « ألا تسمعون ؟ إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب ، ولكن يعذب بهذا » - وأشار إلى لسانه - « أو يرحم »** [(١)] .

---

(١) صحيح البخارى .

أن يبلّغ صاحب الدعوة دعوته من فوق منبره فحسب ، ثم إنه بعد ذلك منعزلٌ عن القوم ، محتجب عن قضاياهم ، بعيد عن آلامهم وآمالهم ، ضائق صدره بهم ، متزرع بضيق الوقت ، وأعباء الدعوة وثقل المسئولية ، فتلك دعوة عقيم لا تجد صداها إلا فى جوف صاحبها ؛ لأنه قد نأى بنفسه عن مشاعر الناس ، وأفسد حسن القول بسوء الفعل ، فلا أثمرت دعوته ، ولا نجت من إساءته ، فبئس الداعى هو ، وما أبعده عن روح الدعوة .

إن رسول الله ﷺ إمام الدعاة ، على ثقل مسؤولياته - كخاتم النبيين - فهو مبلغ الرسالة ، ومربى الأمة العظيمة ، وقائد الوفود إلى الله عز وجل ، يرسم ملامح الداعية الحق ، ويخط معالم شخصيته ، ويرسى مقومات نجاح الدعوة ، ويعلم الدعاة كيفية السمو بإنسانيتهم ، فتسمو بهم دعوتهم .

والصورة الرائعة الحية التى معنا الآن لرسول الله ﷺ وهو جالس مع أصحابه الكرام ، بكل ما توحيه الصورة من التواضع والتبسط وحُسن الصحبة ، ومجاذبة أطراف الحديث ، وتدارس العلم ، ومناقشة مختلف القضايا ، وإذ برجل من الأنصار ، فسلم ثم أدبر لشأنه ، فناداه رسول الله ﷺ نداءً رقيقاً ، يفيض مودة وتواضعاً ورحمة « يا أخا الأنصار » ، يا له من نداء يجيبه القلب قبل اللسان ، وتسبح به الروح فى ملكوت الإيمان ، « كيف سعد بن عبادة » ؟ ، وسعد بن عبادة رضي الله عنه رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ، ألمّ به المرض ، فحبسه فى داره ، طريح الفراش أسير الوهن ، اهتم رسول الله ﷺ لمرضه ، وتألم لألمه ، وحمله فى خاطره شغلاً ، وفى قلبه هماً ، ولم يدع الفرصة إذ واتته ليطمئن عليه ، فأجابه الرجل « صالح » ، والجواب كاف لمن أراد مجرد الإطمئنان ، غير أن حق الصاحب فى حس رسول الله أعمق من مجرد السؤال عن بعد ، وإنما هو الزيارة والمواساة ، ومحاولة التخفيف بقدر المستطاع .

وكان سؤال ودود من رسول الله ﷺ يستبحث صحابته الكرام على زيارة المريض « من يعوده منكم ؟ » ، إن سؤالاً بذلك الأدب الجم لا يمكن أن تكون إجابته إلا المسارعة إلى الإجابة ، قام رسول الله ﷺ أولاً ، بدأ بنفسه ليشحذ الهمم ، فقام معه بضعة عشر رجلاً ، لم يتباطأ منهم أحد ، قام القوم جميعاً ، ما عليهم نعال ، ولا خفاف تقى أرجلهم حرارة الرمال ووخز الحصى ، ما عليهم قلانس تقى رؤوسهم لهيب الشمس وشدة أذاها ، ولا قمص تحمل عن كواهلهم قسوة القيظ .

يتقدمهم رسول الله ﷺ على نفس حالتهم ، لم يتميز عليهم بشيء من لباس أو مركب ، وإنما تقدمهم إلى طريق سبخة شاقة المسير ، يسرها لهم نبل غايتهم فى مواساة صاحبهم ، وحسن الأجر وجزيل المثوبة من الله عز وجل .

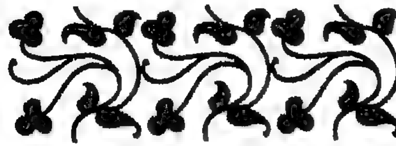
رأى رسول الله ﷺ صاحبه ، وقد هدّه المرض ، وعصف بقواه ، ماذا يملك القلب الرحيم إزاء شراسة المرض وقد هدت قوى إنسان ، فخلفته طريح الفراش ، وقد كان بالأمس بالقريب معافاً ، عاملاً نشطاً ، إيجابى التفاعل ، واضح الأثر ؟ ، ماذا يملك رسول الله ﷺ إلا أن تتفجر فى قلبه الرقيق عيون الحزن فتصب فى عينه فيضاً منهمراً من حر البكاء ، بكى رسول الله ﷺ لمرض صاحبه ! بأبى وأمى وولدى ونفسى أنت يارسول الله .

تبكى شفقة ورحمة لآلام الآخرين وأنت رسول الله ؟! ، تبكى دموعاً لو ارتشفها قساة القلوب – عبر مسيرة البشرية كلها – لأذابت صخرية قلوبهم ، وحولتها أودية خصيبة ، نبتها الرحمة والشفقة والحنان ، تبكى يارسول الله دموعاً طاهرة ، تنحدر فى قلبى شفافية ، وفى وجدانى مرارة وألماً ، فما بال وقعها على الصحابة الكرام رضى الله عنهم ، وقد رأوها رأى عين ، وعاشوها صدق مشاعر ؟ .

مشاعر نبيلة راقية ، وعاطفة فياضة رقيقة ، تنافى معنى الرجولة عند من يظنون أن الرجولة غلظة وفظاظة وجفاء مشاعر ، وحسبهم هذا الميزان المنتكس الظالم ، نعم، بكى رسول الله ﷺ ، وأقر أصحابه على البكاء رحمة لصاحبهم ، بل وكافأهم عليه بتلك الجائزة العلمية القيّمة « ألا تسمعون »؟ ، أنصتوا أيها الحزانى رغم حزنكم ، وتبصروا رغم دموعكم ، وافقهوا قولي برقة قلوبكم ، « إن الله لا يعذب بدمع العين ، ولا بحزن القلب » ، إذاً : أرسلوا عيونكم فياضة عندما تستدعيها الرحمة ، ورققوا قلوبكم بالتفاعل مع أحزان إخوانكم ، وعبروا عن مشاعركم بما لا يغضب الله تبارك وتعالى ، وإياكم والمخاطرة بإطلاق اللسان بما قد يكون فيه هلاككم .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) ﴾ [الطلاق : ١٠ ، ١١] .

صلى الله وسلم وبارك على أرحم قلب عرفته البشرية جمعاء ، قد أطل من بين دموعه ، فرأى أحزان البشرية ، فأشفق على أمته من تلك الأحزان ، فأرشدها كيف تهذب أحزانها ، وكيف تعبر عن حرّ مشاعرها ، بالأدب الذى ينبغى لله سبحانه وتعالى ، رضا بقضائه ، وتسليماً لمشيئته .



الفصل الثاني

رحمة ﷺ بالنساء

المبحث الأول : رفقاً بالقوارير .

المبحث الثاني : فهو خير لكما من خادم .

المبحث الثالث : وأى خير فى العيش بعده .

المبحث الرابع : فوعدهن يوماً لقيهن فيه .

المبحث الأول
رفقاً بالقوارير

من هى المرأة ؟! ...

إنها العالم العجيب الذى به كدر الحياة وصفوها ، هذه هى المرأة كما خلقها الله تبارك وتعالى ، وتلك هى قدراتها التي وهبها الله عز وجل ، فهى سكن وملاذ ، وفيض شعور ، وتوقد عاطفه ، وغل حريرى الملمس ، حديدى الوثاق ، فإن كانت صالحة فاضلة ، طيبة المنبت والمروى ، كان غلها التقى والرشاد ، والوقوف على حدود الله تبارك وتعالى ، فتسلك بمن ورائها طريق النور والفلاح .

« وما أصبغ الله على امرئ نعمة أعظم أثراً ولا أسنى خطراً ، ولا أجمع لشتات النعم ، ولا أجلب لنعم الحياة من المرأة الصالحة ، هى عدة فى الشدة ، وزينة فى الرخاء ، هى منار أمل الرجل ، منها يستمده ، وبها يستفيده ، وإليها يعود به »[١] .

أما إن كانت على غير ذلك ، كان غلها شيطانى النزعة ، وخطاها مظلمة الدروب ، فضلت وأضلت ، وساقت أسراها إلى حب الضياع السحيق ، ومن هنا كانت المرأة « دعامة الكون ، لا يزال ناهضاً مكيناً ما نهضت به ، فإن هى وهنت دونه وتخاذلت عنه ، تهاوت عمده وتصدعت جوانبه »[٢] .

إذن « للمرأة من دقه الحس ، وقوة العاطفة ، وبعد الخيال فوق ما للرجل فهى لا تبرح الدهر بين خاطر متوثب ، ووجدان متأثر ، لا تكاد تسمع خبراً أو

---

(١) المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها .
(٢) المصدر السابق .

تلمح منظراً ، أو تطيف بها ذكرى ، حتى ينال ذلك من أعماق نفسها وأسرار وجهها وشئون عينها ... مثل تلك الطبائع فى نفس المرأة إن وفقت إلى من يتعاهدها ويصلح نهجها ويزيل العوائق من دونها ،كانت سبيل الكمال المطلق ، والخير الصريح إلى الأمم ، وإن منيت بمن يموه لها الباطل ، ويزين لها صفحة الشر ويجنبها طريق السداد ، انعكست آياتها ، وانتكست حالتها ، وهاجت الداء الدوى والشر العقام ، وإن هى تركت وأمرها ، وخليت وسبيلها ، كان شأنها كشأن دفائن الكنوز فى قفرٍ من الأرض ، تتحول الأزمنة ، وتتبدل الأمم وهى على حالها ، لا خير فيها ولا أثر لها » (١) .

لهذا كان اهتمام الشرع الحنيف بكل أمور المرأة وحرصه عليها ، وتربيته لها ، والتأكيد على خطرها ، ومدى تأثيرها سلباً وإيجاباً فى مصائر الأمم ، من هنا كان تعهد رسول الله ﷺ لها بالتربية والتعليم والتوجيه والزود عن حقها ، ولإن كان رسول الله ﷺ رفيقاً رقيقاً رحيماً بالرجال ، فلهو بالنساء أرق وأرحم وأرفق ، وذلك أن المرأة بطبيعتها شديدة الحساسية ، سريعة الإنفعال ، زئبقية المشاعر ، سهلة الإنكسار صعبة الإنجبار ، قلما يبرأ جرحها بسهولة ، لذا كان الرفق بها أليق ، والرحمة بها أوفق .

وهذا ما كان يدركه رسول الله ﷺ حق الإدراك ، فكان عظيم الرحمة بها ، حريصاً على مشاعرها أشد الحرص ، مدركاً طبيعة تكوينها ، متعاملاً معها من هذا المنطلق ، وها هو أنس بن مالك رضي الله عنه يميط غطاء بوتقته قليلاً فتفوح شذا يرستم على وجنات الأفق ، صورة رائعة من صور رحمة ﷺ بالنساء فيقول : « أتى النبى ﷺ على بعض نسائه ، ومعهن أم سليم – وهى أم أنس – **فقال : ويحك يا أنجشة ، رفقاً بالقوارير** » (٢) .

---

(١) المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها .

(٢) صحيح البخارى ، باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء ، كتاب الأدب

كان رسول الله ﷺ إذ هم بسفر يقرع بين زوجاته ، فمن سعدت بفضل الله منهن خرجت معه ، والآن يصطحب رسول الله ﷺ في إحدى رحلاته المباركة بعض زوجاته الطاهرات ، على رواحلهن ، يحدو بهن أنجشة الحبشي ، الغليظ الملامح الداكن اللون ، الخشن الملمس ، غير أنه رقيق النبرة ، شفيف المشاعر ، يحفظ الأشعار ويجيد العزف بها على أوتار القلوب ، قلبه قلب شاعر يرفرف بسحر القريض في عالم علوى الآفاق ، ممتد رحيب ، وصوته عزف قيثار رقيق بديع

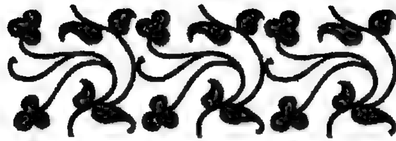
نجد أنرجل من شاعريته وعذوبة نبرته ، رفيقاً يطوى به طول الدروب ، ومعيناً على الحداء ، وها هي الإبل تطرب له ، فتتسق خطاها على نغمات الصوت العذب الرقيق ، ولربما كان الشعر حماسياً ، يبعث في النفوس القوة والإقدام ، فتندفع الإبل سريعة الحركة ، حماسية الخطا ، مما قد يعود على ربات الهوادج المباركات بالإنزعاج والمشقة ، ولربما كان الشعر رقيقاً أنيقاً ، فتتمايل الإبل تمايل الثمل النشوان ، وتطرب الراكبات لرقة الشعر وبديع الصوت وإيقاع الخطى ، فينشغلن لبعض الوقت عن الذكر والتسبيح ، وهذا ما يأباه عليهن رسول الله ﷺ حرصاً عليهن ، ولهذا فقد طلب من الحادى الترفق بالقوارير

كيف إذاً بمن يترك أهله أمام التلفاز والفضائيات ليلا نهار ، وكفى بها مصيبة لقتل الوقت ونقص الإيمان ؟ ﴿ يا أيُّها الَّذين آمنُوا قُوا أنفُسكُم وأهليكُم نارا وقُودها النَّاسُ والْحجارةُ عليْها ملائكةٌ غلاظٌ شدادٌ لاَّ يعصُون الله ما أمرهم ويفعلُون ما يؤمرون (٦) ﴾ [التحريم ٦]

إن إحساس الزوج بزوجته ، وإدراكه لمنعطفات نفسيتها ، وارتسامها في حسه قارورة رقيقة حس ، ناعمة الشعور ، شفيفة الوجدان ، سريعة الإنكسار ،

ليجعله دائماً رقيقاً رفيقاً رحيماً بها ، حريصاً أشد الحرص على مشاعرها ، ملاطفاً لوجدانها ، ينسج من حبه وعطفه وخوفه عليها حصناً منيعاً ، يقيها ما يخدش كرامتها ، أو يؤلم مشاعرها ، فضلاً عما يحزنها ويؤرقها ، مجتهداً فى إبعادها عما ينقص إيمانها أو يشغلها عن ربها ، والزوجة التى تستشعر من زوجها هذا الشعور ، وتنعم منه بتلك الرقة وهذا الحدب عليها ، لهى له الزوجة المحبة ، والصديقة الصدوقة ، والرفيقة المخلصة ، والأم الرؤم ، والأخت الحانية ، والإبنة البارة ، والأمة المطيعة ، والقوة التى تحدوا به دائماً نحو التقدم والنجاح ، والاستمرار والتألق والإرتقاء .

فهل من راغب فى كسب ود القوارير تأسياً بصاحب الرحمة البالغة والرقة الفياضة ، والنور المبين ﷺ .



المبحث الثانى
فهو خير لكما من خادم

هكذا كان رسول الله ﷺ الزوج الغيور ، والرفيق الأمين الحنون ، أما الموقف الذى معنا الآن ، فهو فيه الأب الحانى الذى يعلمنا كيف تكون الأبوة الراقية

« عن أبى ليلى قال حدثنا عليّ أن فاطمة عليها السلام شكت ما تلقى من أثر الرحى ، فأتى النبى ﷺ سبى ، فانطلقت فلم تجده ، فوجدت عائشة فأخبرتها ، فلما جاء النبى ﷺ أخبرته عائشة بمجئ فاطمة فجاء النبى ﷺ إلينا ، وقد أخذنا مضاجعنا ، فذهبت لأقوم ، فقال على مكانكما فقعد بيننا حتى وجدت بردقدميه على صدرى ، وقال : « **ألا أعلمكما خيراً مما سألتمانى ؟ إذا أخذتما مضاجعكما فكبرا أربعاً وثلاثين ، وسبحا ثلاث وثلاثين ، واحمدا ثلاث وثلاثين ، فهو خير لكما من خادم** » (١)

يالبتات كسرى وقيصر ، وقد كن ينعمن بطيب العيش وصفو الحياة ، يتقلبن فيما هو أبعد من نسج الخيال من النعيم ، واللذة والرفاهية ، أكسيتهن الديباج الموشى بخيوط الذهب وثمين اللآلئ واليواقيت ، فرشهن بطائنها من سندس واستبرق وحشوها ألطف أنواع الريش ، أكلهن وشربهن من أطيب ما جادت به الدنيا ، والتذ به المذاق ، قصورهن موشاة بالذهب والفضة ، عبيدهن وإيمائهن تضج بهم القصور وتضيق بهم الطرقات ، شكواهن الفراغ والملال -على كثرة ما لديهن من أنواع اللهو واللذائذ - ولمَ لا وقد ملك آباؤهن

سخارى باب مناقب علي بن أبى طالب كتاب بدء الخلق

الدنيا ، واستأثروا بخيراتها ونعمها ؟ .

لكن ملك القياصرة وإن عظم وامتد فإنه محدود بمدى ما وصلت إليه أيديهم من مكان ، وماا نقضت عنده أعمارهم من زمان ، وما أقصرها وإن طالت الأعمار ، وما أسرع انصرامها وإن اجتمعت لطلابها الدنيا .

أما فاطمة عليها السلام ، فبنت من ؟ وزوج من ؟ وأم من ؟ ، ما طبيعة ملكهم وما كُنه عروشهم ، وما لذائذ عيشهم ؟، إنها فاطمة البتول ، ريحانة أبيها ، وبضعته الغالية ، أما أبوها فهو محمد بن عبد الله ﷺ ، خير خلق الله ، وحبيبه ومصطفاه ، ومسك ختام النبوات والرسالات ، قائد الدنيا بأثرها إلى رحاب الله تبارك وتعالى ، وحامل مشعل حضارتها ؛ ومناط ارتقائها وسموها ، أكله ولباسه : الخشن من الطعام والثياب ، فإن لم يكن ثمَّ طعام فصيام ، فرشه الحصير ، ووسادته أدم حشوها ليف ، قصره مسجد أُسس على التقوى من أول يوم فنبتت فيه أعاظم الرجال ، عرش ملكه قلوب المؤمنين فى طول الدنيا وعرضها ، وزمان ملكه منذ بعثته ﷺ حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

زوج من ؟ ... عليّ بن أبى طالب رضي الله عنه ابن عمّ رسول الله ﷺ وربيبه ، أول صبى ارتشف نور الإسلام ، صاحب فراش رسول الله ﷺ ليلة الهجرة ، ومؤدى عنه أمانات قريش ، العالم الأديب الأريب التقى النقى الطاهر الورع ، الذى يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، الخليفة الراشد ، العابد الزاهد ، الذى ارتضاه رسول الله ﷺ لبضعته وريحانته .

أم من ؟ .. الحسن والحسين ، ريحانتا رسول الله ﷺ ، وعقبه من بعده ، سيدا شباب أهل الجنة ، هذه هى فاطمة الزهراء عليها السلام ، بقية رسول الله ﷺ من الأهل والولد ، فرحة يومه وبسمة غده ، هذه هى فاطمة الحسيبة الشريفة ، العظيمة الأصل ، الطاهرة الفرع ، فكيف هى فى بيتها

إنها المؤمنة القائمة بحق بيتها ، إذْ تَقُمُّ البيت ، وتحلب الشاة وتغسل الثوب ، وتهدهد الطفل ، وتمهد الفراش ، وتطهى الطعام ، وتقوم على حوائج الزوج والولد .

مشقة بالغة ، ثم هى بعد هذا كله تعمل ما هو أضنى وأشق ، إذ تطحن الشعير بالرحى لتصنع منه خبزها ، حتى أثرت الرحى فى يدها الشريفة فآلمتها أشد الإيلام .

سيدة نساء أهل الجنة تحيى هذه الحياة الشاقة ، وبنات كسرى وقيصر يرفلن فى النعيم ، غير أن الأمور عند فاطمة عليها السلام كانت تقاس بمقياس الآخرة لا الدنيا ، ظلت تعمل صابرة محتسبة قانعة بحياتها ، لا تبغى خادماً وهى التى لو أبدت للصحابة الكرام رغبتها فى خادم ، لضاق عليها البيت من كثرة مجيبيها من الأشراف الأماجد ، الذين كانوا يبتدرون نخامة رسول الله ﷺ وبصاقة فيدلكوا به وجوههم تبركاً وحباً وكرامة ، فكيف بخدمة ابنته الحبيبة ؟ ، إنها شرف الدهر ومكرمة الحياة .

ظلت فاطمة عليها السلام تقوم على بيتها خير قيام ، حتى كلّت يداها وخارت قواها ، فرأت أن من حقها الآن أن تطلب خادماً لا كإبنة القائد العظيم الذى له خمس الغنائم ، ولكن كمسلمة منُهكة ، فى حاجة إلى من يعينها على أمور بيتها ، ذهبت بكل ألمها وأملها وحيائها لتبث شكواها رسول الله ﷺ علها ترجع بخادم يحمل عنها مؤنة الرحى ، فقط الرحى .

ويعلم رسول الله ﷺ خبر فاطمة عليها السلام ، فيحمل ألمها فى قلبه الطاهر الشفيق ، ويأتيها بكل حبه وشفقته ورحمته ، فيجلس بينها وبين عليّ كرم الله وجهه حيث أخذا مضاجعهما ، ويضمهما بحنان غامر ، وتواضع جم ، وينصح لهما بأبوة حانية ، ورحمة فوق إدراك العقول .

« ألا أعلمكما خيراً مما سألتمانى » ؟ ، وماذا خير من خادم للمكدودة المتعبة المقروحة اليد من أثر الرحى ؟ « إذا أخذتما مضاجعكما فكبرا أربع وثلاثين ، وسبحا ثلاثا وثلاثين ، واحمدا ثلاثاً وثلاثين ، فهو خير لكما من خادم » .

ومن حق معترض أن يتساءل : وأى رحمة فى أن يمنعها رسول الله ﷺ الخادم ، وهو يعلم مدى ما ألم بها من الألم والجهد ، وعنده السبى يعطيه سائر المسلمين ؟ .

والإجابة ليست بالأمر العسير على من يدرك مدى رحمته ﷺ ، فمنح رسول الله ﷺ خادماً لأى من المسلمين ، فهو رحمة له وشفقة به ، أما أن يعطيه فاطمة رضى الله عنها - سيده نساء أهل الجنة - فإن هذا قد يحرمها مزيداً من الأجر والمثوبة التى ترتقى بها إلى المنزلة التى تنبغى لها كسيدة نساء الجنه (١) .

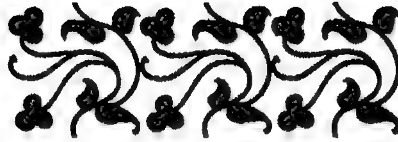
وهذا ما يأباه عليها رسول الله ﷺ ، ضناً بها على غير منزلتها الرفيعة ، فلا ضير إذاً من تعب الدنيا ومعاناتها ، واحتساب ذلك عند الله ، إذا كان الأجر هو رقى المنزلة إلى ما ينبغى لها ويليق بها .

إنها القوة النفسية ، والرفعة الروحية التى تجعل آلام الجسد خارج دائرة الإهتمام ، وسمو بصاحبها إلى آفاق رضوان الله عز وجل ، فيدرك راحة النفس التى تغسل عنه آلام البدن ، وتضمد جراحات المشقة ، فينعم بالمغفرة والرضوان إذ « **من بات كلاً من عمل يده بات مغفوراً له** » .

---

(١) ومن الأدلة على ذلك أنه دخل عليها يوماً فرأى فى يدها اسورتين من ذهب فقال لها : « ما هذا يا فاطمة » فقالت اسورتين من ذهب ، فقال أتريدين أن يسورك الله بأسورتين من نار ؟ فخلعتهما وقالت هما لله ورسوله » رواه أحمد وغيره ، سنده صحيح

إنها الرحمة المطلقة ، والحب الفياض المبصر ، الذى ينأى بأحبائه عن راحة فانية إلى راحة أبدية ، رحمة تظل على مر الزمان نبعاً صافياً لمعنى الأبوة الراقيه ، ودرساً عملياً لمن يجمعون الدنيا من كل سبيل ، لا يعبأون من أى طريق جمعوها ، ظناً منهم أن غايتهم فى تأمين مستقبل الأبناء ، تبرر لهم وسائلهم غير النظيفة – أو هكذا يمنون أنفسهم – وما دروا أنهم يقدمونهم وقوداً للنار –وبئس القرار– « **كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به** » [(١)] .



(١) صحيح الجامع .

المبحث الثالث
وأى خير فى العيش بعده ؟!

إن رسول الله ﷺ الذى يختار لفاطمة عليها السلام ، جهد العمل وخشونة العيش ، هو نفسه الذى يشفق عليها أن تعصف بقلبها الغض مرارة الحزن ، وقسوة الصدمة الأولى .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : « **دعا النبى ﷺ ابنته فاطمة فى شكواه التى قبض فيها ، فسارها بشىء فبكت ثم سارها بشىء فضحكت ، قالت : فسألتها عن ذلك فقالت سارنى النبى ﷺ فأخبرنى أنه يقبض فى وجعه الذى توفى فيه ، فبكيت ، ثم سارنى أنى أول أهله أتبعه فضحكت** » [1] .

إن رسول الله ﷺ لم يكن بالنسبة لفاطمة عليها السلام مجرد أب عطوف رحيم فقط ، إنما هو أبوها وهاديها إلى صراط الله المستقيم ، هو بالنسبة لها أسرة بأكملها ، اختطفتها أيدى المنايا ، لكنها ظلت فيه ﷺ ، هو بالنسبة لها ينبوع الحنان ، ودفء الأمومة وحضنها الحانى [2] ، إذ فجعت بأمها خديجة بنت خويلد رضى الله عنها أعظم زوجة عرفها تاريخ البشرية ، أحن أم ، وأدفأ قلب ، وأرجح عقل وركن البيت الركين ، فقدها بالنسبة لبنيها هو فقد الحياة لمعناها ، وافتقادها لروحها - لولا بقاء رسول الله ﷺ لهم - .

هو بالنسبة لها القاسم وعبد الله وإبراهيم ، رجالها وحصنها إن هم قُدِّرت لهم الحياة ، هو بالنسبة لها حنان زينب ، وصداقة رقية ، وود أم كلثوم اللائى

---

(١) أخرجه البخارى ، باب علامات النبوة فى الإسلام ، كتاب بدء الخلق .
(٢) ورد أنه كان يقول لها إذا أقبلت عليه « أهلاً بأم أبيك » .

ذاقت مرارة الفجيعة بهن الواحدة تلو الأخرى ، سبع جراحات تثغب دماً فى القلب الرقيق المُعنىّ ، أما موت رسول الله ﷺ فهو ثامن الجراح وأقساها إذ هو الموت المحقق لفاطمة عليها السلام .

كان رسول الله ﷺ يدرك تلك الحقيقة القاسية وهو على فراش الموت يصارع آلامه ويكابد بلواه ، وارتفع على سكرات الموت وآلام الإحتضار المتربصة بروحه الطاهرة ، وجسده الشريف ، ليخفف شدة وقع الفجية على القلب الرقيق المكلوم .

ودعاها رسول الله ﷺ لينعى لها نفسه الشريفة ، بكل اللطف والرأفة ، فرقا من هول المفاجأة على قلبها وعقلها ، إذ قسوة المفاجآت تطيش بالعقول ، وربما توقف نبض القلوب أو تفتت الأكباد فتات ورقة شديدة الجفاف فى يوم شديد القيظ بيدٍ شديدة القسوة .

أراد رسول الله ﷺ أن يمهد لفاطمة عليها السلام تمهيداً يساعدها على إستيعاب الموقف والتسليم بقضاء الله عز وجل ، والرضا به ، أراد أن يحتضن عذاباتها ، ويمسح حر الدمع عن قلبها قبل ألا يستطيع ذلك ، « إنه سيقبض فى وجعه هذا » ، هى النهاية إذاً يا فاطمة ، فما قيمة الحياة وليس فيها رسول الله ﷺ ؟ ، وأى خير فى العيش بعده ؟ ، أى أمل فى الصفو بعد هذا الكدر الكثيف المتلاحق ؟ .

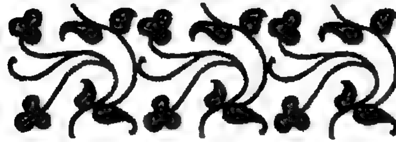
إن الموت الآن يا فاطمة هو أسمى الأمنيات ، ولم لا وفى الموت قرب من رسول الله ﷺ فى أخراه ، أفكار ملحة متلاحقه بعقل الابنه الحبيبة التى كاد يعصف بها الحزن والألم ، فيستقرؤها الأب الرحيم الحانى ، وهنا كان لابد وأن يزفها البشرى الحبيبة إلى نفسها ... ترى ما هى البشرى ؟ ... « سارنى أنى أول أهله أتبعه » ، إذاً لن تطول بك حياة البؤس والأحزان ، فأنت أول أهل رسول

الله ﷺ لحوقاً به يا فاطمة .

إن الموت بمعنى سلب الحياة ، بمعنى اغتيال الآمال والطموحات ، بمعنى انهدام اللذات وافتراق الجماعات ، فتلك مصيبة ما بعدها مصيبة ، أما أن يكون هو الخلود والنعيم المقيم ، بين الأحبة فى جوار رب كريم ، فتلك هى الفرحة تملأ منعطفات النفس ، فتضمد الجرح وتكفكف الدمع ، وتتخطى نزع الموت إلى أمل اللقاء ، فى الفردوس حيث لا موت ولا حزن أو فراق .

وهنا قد حقق رسول الله ﷺ ما يصبوا إليه إذ حمل عن الابنه الحبيبة طيش المفاجأة ، وقسوة الصدمة ، وهول المصاب ، بل وبشرها بقرب اللقاء .

حقاً .. أن ينشغل الأب الراقد رقدة الموت عن هول رقدته بالإشفاق على ابنته ، والرفق بها ، وتضميد مشاعرها النازفة ، فيحاول جاهداً تفتيت وقع المصيبة كى لا تعصف بها ، بل ويعمل على إدخال السرور على قلبها ، وإشعاع البسمة فى وجهها المكتوى بحر دموعها ، فتلك الرحمة فى أسمى مقاماتها ، والأبوة الحانية فى أرقى معانيها .



المبحث الرابع
فوعدهن يوماً لقيهن فيه

وإذا رحمت فأنت أم أو أب   هذان فى الدنيا هما الرحماء [(١)]

وأى رحمة يمكن أن تقاس برحمته ﷺ حتى وإن كانت رحمة الآباء والأمهات ؟ ، لم تقتصر رحمته ﷺ على نساء بيته الطيبات الأطهار ، وإنما كانت كالغيث يعم نفعه حيث يقع ، فالنساء المؤمنات كلهن بناته ﷺ وهو لهن الأب الحانى الرحيم ، وبين أيدينا الآن فيض من تلك الرحمة الحانية .

فعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : قالت النساء للنبى ﷺ : غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً من نفسك فوعدهن يوماً لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن فكان فيما قال لهن : « **ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجاباً من النار ، فقالت امرأة : واثنتين ، قال : واثنتين** » [(٢)] .

قالت النساء : ولمن ؟ للنبى ﷺ . للنساء إذا مقالة أجدر بها أن تسمع ، ولهن رغبات حقيق بها أن تلبى ، ولهن رأى له حق الإدلاء والمناقشة ، والأخذ بصوابه أو تصحيح الخطأ فيه ، ليست المرأة فى الإسلام سقط متاع كما يدعى الأدعياء ، وليست ساذجة مستكينة منزوية ، وليست مقهورة ضائعة مستعبدة ، تستحق من يهرف بالمناداة بحريتها السلبية ، وحقها المغتصب .

إن من اغتالوا حريتها وضيعوا حقوقها هم من قتلوا حياءها ، وحطموا كبرياءها ، وانتزعوا حرمتها من القلوب ، وخلفوها سلعة لا يدفع فيها ثمن ، وإنما تدفع هى الثمن !! ، المرأة فى الإسلام قيمة فى ذاتها ، رفعها الشرع

---

(١) شوقى

(٢) صحيح البخارى ، ٢/١٠ كتاب العلم ، باب« هل يجعل للنساء يوماً على حده فى العلم » .

الحنيف حيث يجب أن تكون ، وقدرها رسول الله ﷺ حق قدرها ، وأكد على عظيم خطرها ، ومدى دورها الفعال في شتى مناحي الحياة ، بل أشفق عليها من ثقل المهام الجسام الملقاة على عاتقها .

فهي الأم مربية الأجيال وصانعة الرجال ومحددة بهم مصائر الشعوب ، إذ تعلمهم فن الحياة ، وتغرس فيهم أرقى القيم وأرسخ المبادئ وأنبل الأخلاق ، فتتفتح بها أكمام عقولهم ، وتتفتق عن طاقات بناءة وقدرات مذهلة .

هي الزوجة المحبة الواعية ، التي تنمي في زوجها خير ما فيه ، وتدفعه إلى سرعة اكتشاف مواهبه التي لم يكتشفها بعد ، وتعينه على حسن استغلال طاقاته ، فيرتقي بذكائه ووعيها إلى أقصى ما تمكنه قدراته ، هي الجبهة الداخلية والقوة الدافعة ، والحنان الفياض ، والسكن الدافئ ، هي نصف المجتمع وصانعة النصف الآخر ، هي من تدير الرحى بيمناها وتهدهد الطفل بيسراها ، وتسبح الله بقلبها ولسانها وتعمل في شتى مجالات الخير فكرها ، هي المجاهدة في ساحات الوغى ، تضمد الجرحى ، وتروى العطش ، وتلهب حماس الرجال ، بل وجندي ينافح بسيفه وخنجره عن الإسلام إذا حمي الوطيس .

وأم عمارة وأم سليم وغيرهما الكثيرات الكثيرات ، ما زال يلمع نجمهم في سماء التاريخ المشرق المنصف ، لن يخبو أبداً ولن يخفت يوماً سناه ، هذه هي المرأة كما أرادها الله تبارك وتعالى ، وكما رباها رسول الله ﷺ . لهذا ولغيره الكثير ، كان حرص رسول الله ﷺ على الإنصات لها حين تقول ، وتلبية رغباتها حين ترغب في الخير ومزيد الفضل .

قالت النساء لرسول الله ﷺ ويا حسن ما قالت : قالت : غلبنا عليك الرجال ، أخذوا بحظ أوفر من وقتك المبارك ، فقبسوا من نورك وشرفوا بمجالستك واستزادوا من خيرك ، ونحن لا نرضى بحظنا منك بديلاً ، ولا

نرضى باستئثار الرجال بك دوننا ، بل نطالب بما ينبغى لنا من حق العلم والتربية والزاد الذى يعيننا على القيام بمسؤليتنا ، فاجعل لنا يوماً من نفسك نستأثر نحن بك دون الرجال .

ما أروع المطلب وما أسمى الغاية ، وأكرم بهن من فضليات يعرفن قدر حقوقهن ، ويطالبن بها فى قوة نفس ورفعة أدب ، لهذا سارع رسول الله ﷺ فى تلبية هذا المطلب العادل فوعدهن يوماً ، فوفى لهن – ومن أحق منه ﷺ بحسن الوفاء ؟ – .

هـــذا رســـول الله لم ينقــص حقــوق المؤمنــات
العلــم كــان شريعـــة لنسائـــه المتفقــهـات [1]

لقيهن رسول الله ﷺ فبدأ بوعظهن لما يعلم من سرعة انفعال المرأة وقرب استثارة غضبها ومدى انخراطها فى أمور قد تلهيها عن بعض واجباتها الشرعية ، ثم أمرهن بما فيه نفعهن وخلاصهن والإرتقاء بأنفسهن وبمن خلفهن ، فكانت تلك رحمته ﷺ بهن وحرصه عليهن .

ولإن كان رسول الله ﷺ رحيماً بالمرأة حانياً عليها فى حالتها العادية ، لهو أشد حنواً بها وحرصاً عليها فى حالات ضعفها أو حزنها أو انكسارها ، فما الظن به فى حالة ثكلها والتياعها ؟ .

حرص رسول الله ﷺ فى أول لقاء بالنساء منفردات ، أن يعزف على أوتار الثكل والإلتياع عندهن ذلك أنها أكثر الأوتار حساسية وأعلاها رنيناً وأغورها جرحاً وأبقاها أثراً فى قلب المرأة ، فكان فيما قال : « ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجاباً من النار » ، لشدة ما تتألم الأم لآلام ولدها ،

---

(١) ديوان شوقى .

ولشدة ما يحزنها ويؤرقها حزنه أو مرضه أو إخفاقه فى بعض مبتغاه ، ولشدة ما يعتصرها فراقه إياها لبعض الوقت،فكيف بها إذا امتحنت بموته ؟ بما فى الموت من شدة النزع وانقطاع الأمل ومعنى العدم وأبدية الفراق ، واستحالة اللقاء فى الدنيا – وإن كان القبر قاب قوسين أو أدنى – .

كيف بها وقد حملته فى أحشائها جنيناً وفى صدرها رضيعاً وفى قلبها أملاً مشرقاً يطرب البيت لأولى ضحكاته ، ويهتز فرحاً لأولى خطواته ، ويطرب نشوة لأولى كلماته ، ويهرول ملبياً لأولى رغباته .

كيف بقلب الأم الذى يرقب الوليد يوماً فيوماً يترعرع وينمو ، ويرقبه طفلاً يلعب ويلهو وصبياً يشب ليطاول هامات الرجل ، وشاباً طموحاً يسعى لتحقيق الآمال ، ورجلاً يقوم بمسؤلياته خير قيام ، وامتداداً تحى فيه الآباء والأجداد .

وإذ بيد المنية تختطفه من حضن قلبها ، وتحطم فيه آمالها ، وتضرم الأحزان بقلبها اضطراماً لا يخبو يوماً ولا ينام ؟ ، ثم كيف بها إذا تكررت المأساة مرة ومرة ؟ ، إنها عذابات متكاثفه يطيش لها لبها ، أو ينخلع لها قبلها ، أو يفتت لها كبده ، أو يقتلها ثكلها ، أو يجتمع كل ذلك لها .

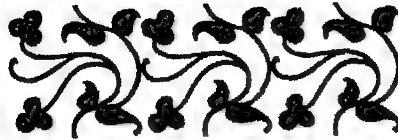
لهذا كانت رحمته ﷺ بالنساء فى أول لقاء جعله خصيصاً لهن ،.وقد اقتضت أن يحيطن بسياج من الإيمان والصبر والاحتساب ، فكان أن يبشرهن تلك البشرى الكريمة ، شريطة أن تتنزلن على قضاء الله راضيات محتسبات، فيهب طيف الجنة برداً وسلاماً على قلبهن الملتاع المحترق بنار الثكل ومرارة الفراق .

﴿ وبشر الصابرين (١٥٥) الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون (١٥٦) أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون (١٥٧) ﴾ [البقرة : ١٥٥ – ١٥٧] .

يا لها من رحمة غامرة ، نسجت من الصبر على المصيبة حجاباً مانعاً من الوقوع فى النار ، وهل مصائب الدنيا وإن جلت تقارن بلفحة واحدة من حر النار ؟ ، أعاذنا الله وإياكم من عذابها .

يا لها من بشرى أحيت كل امرأة قتلها ثكلها فى اثنين من أولادها أو ثلاث فضلاً عمن زادت على هذا ، يا لهاه من بشرى داعبت الأمل فى كل قلب مكلوم بفقد فلذة من أبنائه ، بل يالها من بشرى جعلت من بعض الصاحات ، بل ومن بعض الصالحين من تمنى – على مرارة تلك الأمنية – فقد فلذة يحتسبها عند الله تبارك وتعالى ، فتكون له ستراً من النار .

وتاريخ الصفوة من الصالحين حافل بمثل هذا ، ولم لا ، وهم يطمعون أن تدخل عليهم الملائكة من كل باب ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الرعد : ٢٤] ، إنها الرحمة الفياضة ، قد حولت المصيبة فى القلب المكلوم فرحة غامرة وأحلت مكان الثكل والمرارة وضيق الصدر ، حلاوة الصبر وراحة الرضا بقضاء الله عز وجل ، وحولت جحيم الفراق إلى التطلع نحو جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴿ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [الفرقان : ٧٥ – ٧٦] .



الفصل الثالث

رحمته ﷺ بالعصاه

المبحث الأول : أطعمه أهلك ... أطعمه أهلك ... .

المبحث الثانى : لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم .

المبحث الثالث : أتشفع فى حد من حدود الله ! .

المبحث الأول
أطعمه أهلك ، أطعمه أهلك

يا كثير العفو عمن ... كثر الذنب لديه
جاءك المذنب يرجو ... الصفح عن جرم لديه (١)

ومن للبشرية يارب وقد أجلب عليها بخيله ورجله إبليس اللعين ، وأضرم فيها جحيم الكفر وتيه الحياد عن طريقك المستقيم ؟ .

من لبني الإنسان يارب وقد استعملهم إبليس اللعين جنداً بُلهاء يذبّح بعضهم بعضاً ، يُعذِّب بعضهم بعضاً ، ويجتاح بعضهم بعضاً ويؤله بعضهم بعضاً ؟ ، من للتائهين المتخبطين ، الباحثين عن طوق نجاة فى بحر لجى الموج كثيف الظلمات ؟ ، من لهم جميعاً يارب إلاك ؟ ، فرحمتك جل ثناؤك يارب قد اقتضت أن ترسل بين الفينة والفينة طوق نجاة ، يحمل مشكاة من فيض نورك المبارك ليبدد ظلمات الكفر وينتشل الغرقى وينفخ فيهم من فيض سناك حياة أى حياة ! ، وواسطة العقد وخير المنقذين رسولك الأمين محمد بن عبد الله ﷺ ، رحمتك المهداة ، نور الحق ، وهادى الركب ، الذى لم يألو جهداً فى التبليغ والتأديب والنصح والإشفاق والذب عن شهوات الجحيم ، ولكن بعداً للقوم الظالمين المتعامين عن النور المبين .

فها هو رسول الله ﷺ يتضوع فرقاً على من حرص على إنقاذهم بنور الله تبارك وتعالى ، فأبوا إلا التخبط فى الظلمات والتردى فى الجحيم فيقول : « مثلى ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها

---

(١) ابن القيم

وهو يذبهن عنها ، وأنا أخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدى »[1] .

ما أجهل وأضل من ينساق لعدوه فيورده موارد الهلكة وينأى بنفسه عن حبيب يسلك به طريق الهدى والرشاد ، ولقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على استنقاذ البشرية من بين أنياب إبليس لعنه الله ، فعمل جاهداً على تبليغ كلمة الله عز وجل ، ولشد ما كان حرصه ﷺ على صحابته الكرام فرباهم على عينه وأدبهم بأدبه وفاض عليهم من سنا علمه الذى علمه الله .

ولشدة ما حرص رسول الله على إخوانه الذين لم يرهم ، فحمّل صحابته رضى الله عنهم جميعاً أمانة التبليغ لمن بعدهم حتى تصل الدعوة غضه نضرة إلى الآخرين كما كانت ، وقت جاء بها ﷺ وذلك شفقة على الأمة ورحمة بها أن تحيد عن السبيل ، وتكليفاً لكل جدير بحمل الأمانة أن يحملها ويحفظها غضه نديه حيث قال ﷺ : **« ألا ليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه »**[2] .

هكذا كان حرصه المستمر ﷺ على الأمة وشفقته عليها أن تزل أو تحيد ، ورحمته بها كى تظل محتمية بمظله الشرع الحنيف فتتأدب بآدابه وتنهج نهجه وتقف على حدوده ، ولإن كانت رحمته ﷺ بالمؤمنين الطائعين عظيمة جليلة وافره ، فلهى بعصاة المؤمنين أعظم وفرة وأجل قدراً ، ذلك أنهم بحاجة دائمة إلى من يقيل عثراتهم ، فيذكرهم دائماً بالله تبارك وتعالى، ويؤملهم فى عفوه ومغفرته ، ويخفوهم من عذابه ونقمته، ريأخذ بأيديهم لينهضهم من كبواتهم ، أملاً فى إصلاحهم ، وضنا بهم على النار ، وحرصاً عليهم من انفراد الشيطان بهم ، وهاهو أبو هريرة رضي الله عنه يروى لنا من بستان السنّة المطهرة فيضاً نورانياً

---

(١) البخارى ومسلم واللفظ لمسلم برقم (٢٢٨٥) .
(٢) مسلم (١٦٧٩) والبخارى ، باب قول النبى ﷺ : « رُب مُبلغ أوعى من سامع » واللفظ لمسلم .

يصور مدى رحمة رسول الله ﷺ بأحد المسرفين على أنفسهم المجترئين على ربهم – تعالت عزته – المقرين بذنوبهم الطامعين فى العود إلى ساحة الرضوان حيث قال :

« بينما نحن جلوس عند النبى ﷺ إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله هلكت **قال مالك** ؟ قال : وقعت على امرأتى وأنا صائم ، **فقال رسول الله ﷺ : هل تجد رقبة تعتقها** ، قال : لا ، **قال : فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين** ، قال : لا ، **قال فهل تجد طعام ستين مسكيناً** ، قال : لا ، **فمكث عند النبى ﷺ فبينما نحن على ذلك أتى النبى ﷺ بعرق فيه تمر** – والعرق المكتل – **قال : أين السائل** ، قال : أنا ، **قال : خذ هذا فتصدق به** ، فقال الرجل : أعلى أفقر منى يارسول الله ؟ ، فوالله ما بين لابتيها يريد الحزنين – أهل بيت أفقر من أهل بيتى ، **فضحك النبى ﷺ حتى بدت أنيابه ثم قال : أطعمه أهلك ... أطعمه أهلك** » (١) .

ما أعظمك ، وما أحلمك ، وما أنبل خلقك يا حبيبى يا رسول الله ، الرجل صحابى جليل ، تربى فى المدرسة الحنيفية ، وتتلمذ على أعظم أستاذ ، سعدت به البشرية ، فسمى بعلمه واستضاء بهديه ، ومضى على دربه ، صواماً قواماً جوالاً بفكرة فى ملكوت الله عز وجل ، مُحَوِّماً بقلبه حول العرش العظيم ، وها هو اليوم قد أظمأ نهاره لله عز وجل ، فشفّت نفسه وصفى ذهنه ، وارتقى إيمانه حتى كاد يقطف من ثمار الجنة أو يدق باب الريان ، غير أن إبليس عليه لعنة الله ، حسده على التلذذ بجمال الطاعة فأبى إلا أن يفقده سعادته ويهوى به من مرتقاه ، فزين له زوجته ، وأشعل بها رغبته ، فأفسد صومه وأهلكه بالإجتراء على ربه .

---

(١) البخارى : باب إذا جامع فى نهار رمضان ؟ ولم يكن له شيء فتصدق عليه ليكفر كتاب الصوم .

وأفاق الرجل على وخز الضمير ، وصراخ الإيمان فى قلبه ، ومرارة الندم فى حلقه ، وشدة الخوف من الله تبارك وتعالى ، فضاقت عليه الأرض بما رحبت ، ولم يجد لنفسه مخرجاً إلا عند رسول الله ﷺ فهرع إليه بخوفه ومرارة نفسه ، وحزنه وندمه ، ينعى بالأسى نفسه ، هلكت يا رسول الله ، فالتمس لى مخرجاً يقينى الهلكة والضياع ، أدرك رسول الله ﷺ مدى ما ألمّ بالرجل من هم أثقل كاهله ، وأضج مضجعه ، واعتصره اعتصاراً ، فقال : مالك ؟ بثنى همك والق عن قلبك هذا الفزع ، أخبرنى ما الخير .

قال : هلكت يا رسول الله ، إنى عصيت من حيث أردت الطاعة ، وأسأت لنفسى من حيث أردت الإحسان بها ، غلبتنى بشريتى فأردانى الشيطان فى المعصية ، ثم صرخ الإيمان المجروح فى قلبى فسعيتُ ألتمس النجاة لديك فهل لى من نجاة ؟ .

إنه ﷺ كان يأخذ بأيديهم خطوة خطوة ، يعلمهم ويربيهم ويبلغهم الوحى آية آية ، ويرسم لهم الطريق المستقيم لحظة بلحظة ، ولا يألو جهداً فى النصح لهم والتوجيه ، بل يكفى وجوده بينهم ليكون هو ضميرهم اليقظ ، وعقلهم الواعى الراشد، وقلبهم التقى المستحى من اطلاع الرقيب سبحانه وتعالى عليهم، أقول : لو قسى رسول الله ﷺ عليه لكانت تلك هى الرحمة بعينها إذ قسوته على الرجل فى تلك اللحظة غيرة على الدين ، وغضباً للوقوع فى المعصية بعد كل ما يبذله ﷺ فى التربية والتهذيب ، غير أن رحمته ﷺ كانت فوق تلك الرتبة بكثير ، إذ عالج الأمر برويّة وحكمة باحثاً للرجل عن المخرج الشرعى بدلاً من التوبيخ والعتاب الذى ربما أضاع الرجل وأقنطه من رحمة الله عز وجل ، لهذا بادر الرجل بسؤال يشع حناناً وطمأنينة ، هل تجد رقبة تعتقها؟ «هل تجد» لم يلق إليه بالحل دونما التفات إلى إمكانية التطبيق ، بل يتباحث مع الرجل – فى حدود البدائل الشرعية – ليصل به إلى ما يناسبه من تلك الحلول .

فأجاب الرجل بلا . هل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟ ، وأجاب الرجل أيضاً بلا ، فهل تستطيع إطعام ستين مسكيناً ؟ ، قال ولا هذه يا رسول الله ، استنفذ رسول الله ﷺ كل المخارج الشرعية للرجل وهو لا يقوى على الخروج من أى منها ، وماذا يفعل رسول الله ﷺ ؟ أيترك الرجل لمعصيته وحيرته ؟ ، فقد بين الحكم الشرعي وعدد له المخارج مخرجاً مخرجاً ، فعليه أن يجتهد فى الخروج من أيها إذا أراد النجاة .

غير أن رسول الله ﷺ لم يكن لينهى مهمته عند ذلك الحد ، كيف هذا وهو الرحمة المهداة ؟ ، وكان المخرج مكتل من تمر ، أعطاه رسول الله ﷺ الرجل ليتصدق به تكفيراً عن الذنب ، وإرضاءً للرب ، وخروجاً من ذل المعصية ، وكان على الرجل أن يقبل عطاء رسول الله ﷺ ، راضية به نفسه ، مغتبطاً به قلبه ، شاكراً فضل ربه ، حافظاً معروف نبيه ﷺ ، ثم يذهب ليتصدق به ، فيتحلل من إثمه ، ويتطهر من معصيته ، غير أن رحمة رسول الله ﷺ قد أطمعت الرجل فيما هو أكثر من ذلك ، أطمعته فى الاحتفاظ بهذا التمر لنفسه ، والتصدق به على أهله وعياله الفقراء المعوزين .

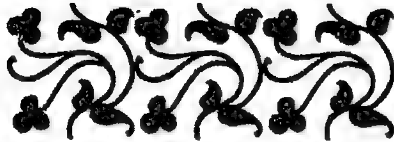
وهنا كان لابد أن ينفذ صبر الحليم ، وتتململ الرحمة فى القلب الرحيم – إلا أن يكون هذا القلب هو رسول الله ﷺ – ضحك رسول الله ﷺ عجباً من أمر الرجل ، وترفقاً به ، وتودداً له ، ثم قال : « **أطعمه أهلك ... أطعمه أهلك** » .

صلى الله وسلم وبارك عليك يا نبى الرحمة ، فقد أتاك الرجل مزعوراً هالكاً ضائقاً صدره ، مغلولاً فى ذنبه ، وقام عنك منشرحاً مطمئناً ، مكفراً عن ذنبه ، يحمل الفرحة بين أضلاعه ، وطعام أهله بين يديه ، ونور الإيمان المتجدد فى قلبه

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُوْلَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) ﴾ [آل عمران : ١٣٥ ، ١٣٦] .

إنها حقاً معالجة حكيمة ، جبرت كسر الرجل وأطلقته من ذل معصيته ، وأذهبت جوع أهله ، وجعلت للأمة مخرجاً من بعده ، وصدق الله العظيم حيث يصف رسوله الكريم بقوله :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .



المبحث الثاني
لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم

لطالما نوع رسول الله ﷺ في طرق معالجة الأدواء بما يتناسب مع طبيعة الداء وطبيعة المداوى ؛ فلربما أتى الرفق بما لم تأت به الشدة لدى شخص ما ، ولربما أتى العتاب الرقيق بما لم يأت به العنف مع آخر ، ولربما أتى الهجر بما لم يأت به العتاب مع ثالث ، ولربما أتت الشدة بما لم يأت به الرفق والعتاب والهجر مع رابع .

أساليب تربوية متنوعة ، ومحسوبة النتائج عند المربى الأعظم ﷺ حسب تقديره للمواقف ، وتحليله لشخصية صاحبه ، وإدراكه لمنعطفات نفسيته ، ومدى انفساح عقله وارتقاء تفكيره .

ومن أسباب العلاج ما هو موقوف على تقدير رسول الله ﷺ ، ومنه ما هو أمر رباني ومنهج شرعي ، لا يملك المسلم معه إلا التسليم والرضا ، وربما كان ظاهره الشدة إلا أن حقيقته رحمة بالغة بالأمة أفراداً وجماعات ، إذ أن الله سبحانه وتعالى الذى خلق الخلق وهو أعلم بهم قد شرع لهم ما يصلح دنياهم ودينهم ، وهو الخبير العليم ، وكل أوامره رحمة بالغة ، إذ هو أرحم الراحمين ، والموقف الذى نحن بصدده الآن تتجلي فيه رحمة الله تبارك وتعالى فى تطهير عبده المؤمن مما يلم به من رجس المعصية ، ثم تتجلى فيه رحمة رسول الله ﷺ على المذنبين المقتحمين لحدود الله عز وجل .

وموقفنا هذا يفيض علينا من رقة رسول الله ﷺ ورحمته فيضاً نورانياً ينساب فى النفس الإنسانية رقة وشاعرية وحناناً فيعلمها كيف تحنو وترحم حتى العصاة المذنبين

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : أتى النبى ﷺ بسكران ، فأمر بضربه فمنا من يضربه بيده ومنا من يضربه بنعله ، ومنا من يضربه بثوبه ، فلما انصرف قال رجل : ما له أخذاه الله ، فقال رسول الله ﷺ : « **لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم** » [1] .

الخمر أم الخبائث وطريق المُغَيَّب إلى كل رذيله ، لها فى النفس الدنيئة لذة ونشوة ، ولها فى القلب المريض جاذبية وبريقاً تستهوى من لا خلاق له وتأسر من لا عقل له ، فما بال هذا الرجل وقد رباه رسول الله ﷺ وتعهده وأرشفه التشريع ندياً، وأقرأه التنزيل غضاً طرياً ؟ ، ما له وقد استعبدته شهوته ، فتدنت به إلى معصية الرسول ﷺ ، والاجتراء على محارم الله عز وجل ، فتردى فى الهلكة ، تردى الفراش فى النار ؟ سكر الرجل رغم علمه بتحريم الخمر ، وتحذير رسول الله ﷺ من كل مسكر ، لكنه غرير أغراه السائل الخبيث فقبله فى جوفه وغلف به عقله ، وتردى به إلى مكانة لا تليق بتكريم الله تبارك وتعالى لآدميته ، وحرص رسول الله ﷺ على إنسانيته .

وهنا وجب حق الله تبارك وتعالى ، وحق الله أولى بالقضاء ، ولهذا أمر رسول الله ﷺ بضربه حداً لتعديه حدود الله جل سناه ، وتطهيراً له من الذنب ، إنها الرحمة البالغة ، كيف ؟ وهل يصبح الضرب رحمة ؟ .

إن الرجل بمخالفته أمر الله تبارك وتعالى وشربه للخمر قد أثقل كاهله بالسيئات ، وأهلك نفسه بغضب الرب عز وجل ، وغضب الرب تبارك وتعالى نار تلظى يصلاها كل مجترئ أشقى ، نعوذ بالله من الإجتراء على محارمه والشقاء بمعصيته ، إن بضع عشرة ضربة تكفر ذنب الرجل وتطفئ غضب الرب

---

(١) البخارى ، باب ما يكره من لعن شارب الخمر ، وإنه ليس بخارج من الملة ، كتاب الحدود .

لهى الرحمة البالغة إذ تعيد المذنب إلى حظيره الإيمان وتقتلع من نفسه جذور التلذذ بالخمر وتقى المجتمع شر ذهاب عقله وترديه فى كل منكر . إذ أن للخمر ما بعدها من كل شر ورزيله .

أمر رسول الله ﷺ بضرب الرجل حداً يطهره ، فتبادر الحضور إليه باليد والثوب والنعل حسبما تيسر لكل منهم ، علت النعال الرأس المدنس بالمعصية ، والعقل المغيب بالشهوة ، والإنسانية المتردية إلى ما هو دون البهيمية ، فحق للرجل أن تعلوه النعال لتطهره ، هكذا أخذت تحط عن الرجل يد الضارب بعض خطاياه ويحط عنه ثوب الآخر بعضها ، وتنتشله نعل ثالث من الدنس إلى الطهر والنقاء ، حتى تساقطت عن الرجل سيئات جريمته ، فعاد مكتمل الإيمان ، طاهر النفس مكفراً عن الذنب ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [البقرة : ١٦٠] .

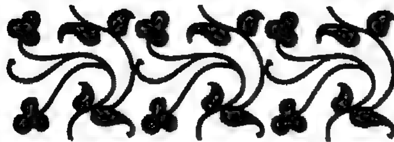
إنها الرحمة التى أهداها الله تبارك وتعالى إلى عباده على يد رسوله الرحيم ليعيدهم إلى صراطه المستقيم رحمة تحثو التراث فى أفواه المتشدقين بوحشية الحدود وقسوتها ، كيف وقد شرعها أرحم الراحمين ، إن القسوة ليست فى إعطاء المريض الدواء رغم مرارته ، إنما فى حبسه عنه ، إن القسوة ليست كيّ الجرح إذا استعصى على الدواء ، إنما فى تركه ينزف حتى الموت ، إن القسوة ليست فى بتر العضو المصاب بالأكلة ، إنما فى تركة حتى تسرى منه إلى الجسد كله فيقاسى وحشية الألم ومرارة العذاب ومعاناة الجميع حوله حتى يقضى لا تنفعه جميع الأدواء .

الرحمة إذاً هى عودة العبد الأبق إلى رحاب سيده ، تائباً نادماً مكفراً عن ذنبه – إن كان ثمة ما يوجب الحد – وقد عاد الرجل وطهر ولله الحمد والمنه ، فلما انصرف قال رجل : ما له أخزاه الله ؟ ، كيف يجرؤ على تعدى حدود الله تبارك وتعالى ؟ .

كيف استذلته كأس خبيثة دنسه فسرى خبثها ودنسها فيه ؟ ، فقال رسول الله ﷺ : « **لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم** » ، نعم إنه إذ هانت عليه نفسه قد هان على الله وعلى عباد الله حتى تناولته أيديكم وأثوابكم ونعالكم ، أما وقد تطهر وعاد إلى رحاب ربه فلا سبيل لكم عليه ، ولا حق لكم فى تناوله ، ولو بمجرد الألسنة ، فقد عادت حرمته كمسلم ، وقد اكتمل بالحد ما نقص من إيمانه فلا سبيل لكم عليه الآن .

فلا تكونوا عون الشيطان على أخيكم ، لا يستقذروه فتفقدوه ثقته فى القدرة على السمو بنفسه ، والترفع عن تلك الدنايا فيستسلم للشهوات ويخلد للسقوط فتكونوا أنتم أول من أسلمه للشيطان .

إن حقه عليكم أن ترتفعوا به حيث أراده الله ، ولا تقصوه عنكم ، فإنما الذئب يأكل من الغنم القاصية ، بل تعهدوه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وحسن الصحبة وصدق النية ، احتووه بقلوبكم وتعهدوه بإخلاصكم ، فتقوى العزيمة فى نفسه ، ويقوى على المعصية صبره ، وتقوى رغبته فى اللحاق بركب الصالحين فيكون هو المعافى الذى لم يترك الجرح ندباً فى نفسه تعكر صفاءها وتشوه جمالها ، يا لها من رحمة واعية تقيم المعوج وتشفى العلل وتمحو ذل المعصية ، فإذا المعتل المنهك صلب العود قوى الإرادة صحيحاً معافى .



المبحث الثالث
أتشفع في حد من حدود الله ؟!!

من لى برد جماح من غوايتها كما ترد جماح الخيل باللجم
فلا تُرم بالمعاصى كسر شهوتها إن الطعام يقوى شهوة النهم
والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم
فاصرْف هواها وحاذر أن توليه إن الهوى ما تولى يُعم أو يصم
وراعها وهى فى الأعمال سائمة وإن هى استحلت المرَعى فلا تسم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة من حيث لم يدر أن السم فى الدسم [(١)]

نعم إن لم تفطم النفس عن المعاصى استمرأت الغواية ، واسترسلت فى الغى ، وصارت داءً كريهاً ، لا يلبس أن يستشرى عداوة فى المجتمع كله داءً عضالاً لا دواء له ولا منجاة منه .

وانفطام النفس عن المعاصى لا يتم إلا بمراقبة الله عز وجل ، والوقوف على حدوده ، وسلامة المجتمع لا يتم إلا بحراسة تلك الحدود ، والأخذ بقوة على يد كل معتد أثيم وفى هذا سلامة الفرد ككيان بشرى تورده المعاصى موارد الهلكة ، وسلامة الأمة ككيان اجتماعى تستشرى فيه الفوضى بالمعاصى وترديه الرزيلة ويقضى عليه التفكك والانحلال .

وها نحن بصدد هدى نبوىّ مبارك يشفق منه رسول الله ﷺ على الفرد أن تحيط به آثامه وعلى المجتمع أن يستشرى فيه الداء وتستعصى الأدواء .

---

(١) البرده للبوصيرى .

عن عائشة زوج النبى ﷺ أن قريشاً أهمهم شأن المرأة التى سرقت فى عهد النبى ﷺ فى غزوة الفتح ، فقالوا من يكلم فيها رسول الله ﷺ ، فقالوا : ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ ، فأتى بها رسول الله ﷺ فكلمة فيها أسامة بن زيد ، فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال : « **أتشفع فى حد من حـــدود الله ؟** » ، فقال له أسامة : أستغفر لى يا رسول الله ! ، فلما كان العشى قام رسول الله ﷺ فاختطب فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : « **أما بعد فإنما أهلك الذين من قبلكم ، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وإنى والذى نفسى بيده لوأن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها** » ، **ثم أمر بتلك المرأة التى سرقت فقطعت يدها ، قال عائشة : فحسنت توبتها بعد ، وتزوجت ، وكانت تأتينى بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ** » [(1)] .

الرحمة بالفرد أن تجتث جذور المعصية من نفسه اجتثاثاً ، فالذى لم ينهه الرجاء فيما عند الله سبحانه وتعالى عن المعصية ، يردعه الخوف من عذابه ونقمته عز جاهه ، والذى لم يقلع عن الذنب بالموعظة الحسنه ، ينزجر بالتهديد والوعيد ، والذى لم يرتدع بهذا ولم ينزجر بذاك ، فإن به عطباً خبيثاً واجب الاجتثاث والعطب الخبيث هنا كان فى يد تلك المرأة الشريفة ، التى لم يمنعها شرفها من التردى فى الجريمة ، وما حالت حدود الله تبارك وتعالى بينها وبين السقوط فى المعصية ، فلا هى حفظت حدود الله فوقفت دون اقتحامها ، ولا هى حفظت شرف قومها فوقفت دون امتهانه ، وإنما كان صوت الجريمة فى نفسها أقوى من كل الأصوات ، وجاذبية الجريمة ليدها أقوى من كل الحدود والقيم ، لهذا كان حقاً على تلك اليد الخبيثة المجترئة على الله جلت عظمته أن

---

(١) مسلم (٦ / ٢٠٢) .

تجتث تطهيراً لصاحبتها ، واتقاءً لعطبها الذى استعصى على كل علاج ، فكانت رحمة رسول الله ﷺ بالمرأة هو القصاص الذى يطهرها من الذنب ويقيها عذاب الرب وويلات الجحيم .

أما رحمته ﷺ بالمجتمع فهى أن يجتث عناصر الجريمة منه ، فلا تَسْتَشْرِى فى جسم الأمة ، ولا تصيب الكيان الاجتماعى بالإعياء والدمار ، ليكون المجتمع قوياً نقياً مترابطاً متراحماً ، ولن يتأتى هذا إلا بإرساء قواعد العدالة الاجتماعية حيث تظل الناس مظله واحدة ، هى مظلة الشرع الحنيف ، ويكال للناس بمكيال واحد ، هو مكيال الله الذى لا تشرد عنه مثاقيل الذر ، ويزن الناس بميزان واحد هو ميزان التقوى ، ويقيس الناس بمقياس واحد هو مقياس العمل لله عز وجل ، فمن انقطع به عمله لن يوصله نسبه ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾[الزلزلة : ٧ ، ٨] .

ومن يجترئ على حدود الله فلا شفاعة فيه لمقرب أو حبيب ، ومن هنا فلا شريف ولا وضيع ، ولا غنى ولا فقير ، ولا عظيم ولا حقير ، إنما التقوى هى خير زاد فى الرحلة إلى الله عز وجل ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : ١٩٧] . والعمل هو خير مركب ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾ [النحل : ٩٧] .

فالمجتمع نسيج متكامل ، تتكافأ فيه الفرص ، وتتوحد فيه الأحكام الشرعية وتتوارى فيه الأنساب خلف نسب الدين وتلغى فيه الأحساب أمام حسب الإسلام ، كما قال المؤمن الحق سلمان الفارسى رضي الله عنه :

أبى الإسلام لا أبى لى سواه إذا افتخروا بقيسٍ أو تميم

وها هى الزهراء رضى الله عنها بنت أشرف خلق الله ، يقرر رسول الله ﷺ

وهو يرسى قواعد العدالة الاجتماعية إنها وأدنى مسلم أو مسلمة أمام شرع الله سواء ، وأمام قانون الله أكفاء ، إلا أن يرتفع العمل بأيهما أو تثقل التقوى ميزانه .

شرف الإنسان إذاً لا يكمن فى حسب أو جاه أو سلطان ، إنما فى المضى على صراط الله المستقيم والتزام نهجه القويم، لهذا فلا خصوصية لذى سلطان، ولا ميزة لذى مال ، إنما هى العدالة المطلقة والرحمة المنصفة التى تقيم مجتمعاً صحيحاً معافاً ، لا يعتريه خلل أو اضطراب ولا مكان فيه للطبقية المقيتة ولا فرصة فيه لنمو الحقد والضغائن . إنما هو مجتمع ديّن متكافئ يثاب فيه المحسن بإحسانه ويعاقب فيه المسيء بإساءته ، ويقتص فيه ولى الأمر من كل متعد لحدود الله ، ومن هنا باءت اليد الآثمة بجرمها وتطهرت صاحبتها ، فتابت وحسنت توبتها و يممت بيت رسول الله ﷺ كلما حزبها أمر فيقضى رسول الله ﷺ حاجتها ويعاملها برقة بالغة ، وبنفس الرحمة التى حولتها من سارقة متعدية إلى مؤمنة صادقة الإيمان . هكذا كانت رحمته ﷺ بعصاة الأمة رحمة ردتهم إلى رحاب الله عز وجل رداً جميلاً ، وعلمت البشرية كيف يحتوى شاردها ، وتقوّم معوجها ، وتقيل عثرة ضعيفها، وترتفع بساقطها، وتغرس الأمل فى كل قلب شارد عن منهج الله أنه متى سارع للرجوع وجد قلوباً رحيمة تحتضنه وأيدى حانيه تنفض عنه غبار الخطيئة وعقولاً مضيئة تهديه الطريقة وقبل كل هذا رب كريم يغفر الذنب ، ويقبل التوب ، ويعفو عمن أساء ، ويسع الكل برحمته فتلهج إليه الألسنه وتضرع إليه القلوب .

فمن إلاك يارب ... رحيم يغفر الذنب
ويجعل ناره برداً ... على القلب الذى تاب

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر : ٥٣] .

الفصل الرابع

رحمته ﷺ بالأطفال

المبحث الأول : من لا يرحم لا يُرحم .
المبحث الثانى : اللهم ارحمها فإنى أرحمهما .
المبحث الثالث : فجعل يمسح خدّىْ أحدهم .
المبحث الرابع : فأسمع بكاء الصبى فأتجوز فى صلاتى .

المبحث الأول
من لا يرحم لا يُرحم

إن المربى فى شرع الهدى رحم — بر بمرعيه لا عاتى الخلق
يدمى بسوط الأذى القطعان وهو يرى — فى نفسه ضيغماً قد صال فى غسق
أطفالنا يا رعاة الجيل عندكم — وديعة لا دمى حطم لدى النزق[1]

نعم إن المربى الأمين رحم حانيه ، تحتضن الناشئة برفق ومحبة ، احتضان النطف المشيجية الهينة الطائعة ، فتتشكل له حسبما شاء وتتلون به كيفما أراد ، فتسمع بأذنيه ، وترى بعينيه ، وتتكلم بلسانه ، وتفكر بعقله إلى حد بعيد ، كيف لا وهو الذىّ نحت فكره فى عقولهم ، وطبع شخصيته على صورهم ، ونقش علمه فى قلوبهم ، فيصبحوا منه نسخ شبه مكرورة ، لا يشذ عنها إلا صاحب عقلية ناقدة ، أو رؤية متجددة ، أو طاقات بعيدة ، ولا ينسلخ نهائياً رغم هذا عن صورة المربى إلا وبه منه أثر ، وله فيه شبه قل أو كثر .

لهذا كان حق الناشئة على المربى أن يكون أميناً على ما استودعه الله لديه، حريصاً على أن يغرس فيهم كل فضيله ، ويسمو بهم إلى أقصى غاية ، ولن يتأتى له هذا إلا إذا كانت فكرته فاضلة ، وأدواته نبيله ساميه سمو الهدف ونبل الغاية .

وأسمى أدوات المربى هى مكارم الأخلاق ، التى تتجلى على الناشئة حباً وحناناً وحلماً وتواضعاً وإخلاصاً وبذلاً ، ورجاحة عقل وحسن تصرّف ، وكلها سنداً للمربى فى القيام بمسؤليته الجليلة خير قيام ، فينبت غرسه، ويحلو ثمره ،

---

(١) الشيخ كامل بدر

ويورق شجره ظلاً ظليلاً ، يلوذ به المجتمع ويستروح فيه .

« فإذا لم يكن المربون على مستوى المسئوولية والأمانة وعلى علم بأسباب الإنحراف وبواعثه وعلى بصيرة وهدى من الأخذ بأسباب العلاج وطرق الوقاية ، فإن الأولاد – لا شك – سيكونون فى المجتمع جيل الضياع والشقاء وعصبة الفساد والجريمة » (١) ، فينوء بهم المجتمع ويعانى ضربات فسادهم ويلفظهم من بين أحضانه لفظ مبعد منبوذ ، غير مأسوف عليهم ولا مُعْتَذَر لهم .

حينها ربما بكى المربى سوء صنعته وتضييع أمانة ، ولا تملك له إلا قول الشاعر :

أتبكى على لبنى وأنت قتلتها لقد ذهبت لبنى فما أنت صانع ؟

من هنا فقد أرسى رسول الله ﷺ قواعد التربية السليمة للناشئة ، وأولاهم من فيض حبه وواسع رحمته ، وجُل اهتمامه ﷺ ذلك أن الطفل نبتة غضة ضعيفة بحاجة إلى من يحوطها بالرعاية ويرويها بالحب والحنان ، ويدعمها بالنصح والإرشاد ، فى رفق وتؤده ، حتى تقوى النبتة ويشتد العود ، وأولى تلك القواعد هى الرحمة الفياضة ، ورحمته ﷺ بالأطفال أوسع من أن يحتويها هذا المقام إذ الخليق بها الانفراد ببحث مستقل ، لما لها من أهمية كبرى ، تكمن فى كونها قاعدة رئيسة من قواعد التربية عامة ، وتربية الطفل خاصة ، غير أن ما يمكننا تناوله فى هذا المقام عدة أمثله ، وإن قلت إلا أنها تلقى الضوء على هذا الجانب الرائع من خلقه الرحيم ﷺ ، ومثالنا الأول زهرة ندبة فى فم أبى هريرة العطر الفواح .

عن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قبّل رسول الله ﷺ الحسن بن عليّ وعنده

---

(١) تربية الأولاد فى الإسلام

الأقرع بن حابس التميمى جالساً فقال الأقرع : إن لى عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحداً ، فنظر إليه رسول الله ﷺ وقال : « **من لا يرحم لا يُرحم** »[(١)] .

الحسن بن عليّ رضى الله عنهما ، عطرة رسول الله ﷺ وريحانته الشذية ، وابنه إذا مات الولد وعقبه إذا انقطع العقب .

أوى الحسن إلى رسول الله ﷺ كما تأوى الفراشة إلى أكمام الزهر النضر ، وشيمة الأطفال دائماً الإيواء إلى القلب الحانى والحضن الدافئ ، وارتسم الحنان الفياض قبله رقيقة ملؤها الحب والرحمة على الخد الغض البرئ رسالة عملية يستشعرها القلب معان رائعة ، قلما تستطيع الكلمات التعبير عنها ، إندهش لها رجل ظن أن الأبوة صرامة وعنف وجفاء ، وأن الرجولة فظاظة مقيتة وغلظة صخرية .

إندهش الأقرع بن حابس حين رأى معنى الأبوة الحقة فى فعل رسول الله ﷺ فقال ربما معاتباً نفسه ، ربما معترفاً بجرمه ، ربما نادماً على قسوته وجموده ، ربما لتلك الأسباب مجتمعه قال الرجل زاهلاً : « إن لى عشرة من الولد ما قبّلت أحدهم » .

ظننت يا رسول الله أن مقتضى الأبوه طعام لجوع البطون ، ولباس لعرى الأبدان ، ومأواً من لهيب الشمس وصفع الرياح ، لم أعلم يا رسول الله أن حق البنوة فوق هذا بالكثير الكثير . جهلت أن الأبوة وجدان فى أروع تألقه ، وعقل فى أرفع حكمته، وعطاء فى أعلى قمته ، لم أقف على تلك المعانى من قبل يا رسول الله .

---

(١) صحيح البخارى ، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ، كتاب الأدب .

وينظر إليه رسول الله ﷺ نظرة كلها اللوم والاستنكار والتوبيخ . أب لعشرة أبناء ، زهور نضرة ، هي لا محالة ذابلة إن افتقدت من يتعهدها ، كان الأحرى بك أن تضم هذا أو تشم هذا ، ويهدهد هذا ، ويداعب هذا ، فإذ بك حتى لم تقبل هذا ولا هذا ... أى رجل أنت ؟! ... .

إن الإنسان تربطه بما حوله من أرض وسماء وأبنية ومتاع علاقة ألفة ، ورباط صداقة وهى جمادات لا تشترك معه فى إنسانية أو حياة ، فما بال هذا وهم فلذة كبده ، تجرى دماؤه فى عروقهم ، وتنتقش ملامحة على صفحات وجوههم ويمتدون هم فيه أصلاً ونسباً ويمتد هو فيهم غداً وأملاً .

نظر رسول الله ﷺ إلى الرجل نظرة تحمل تلك المعانى جميعاً ثم عبر عنها بكلمتين جامعتين « من لا يرحم لا يرحم » .

إذ كيف يرجو رحمة الله الغنى عن عباده من يعامل من حوله بقلب معطلة فيه كل وظائفه الوجدانية ، وهو مع ذلك لا يستغنى عنهم ، بل ويرتجى منهم كل رجاء ، وينتظر منهم كل عطاء ، إن « من المشاعر النبيلة التى أودعها الله فى قلب الأبوين ، شعور الرحمة بالأولاد والرأفة بهم ، والعطف عليهم ، وهو شعور كريم ، له فى تربية الأولاد وفى إعدادهم وتكوينهم أفضل النتائج ، وأعظم الآثار ، والقلب الذى يتجرد من خلق الرحمة يتصف صاحبه بالفظاظة العاتية ، والغلظة اللئيمة القاسية ، ولا يخفى ما فى هذه الصفات القبيحة من ردود فعل فى انحراف الأولاد وفى تخبطهم فى أوحال الشذوذ ومستنقعات الجهل والشقاء »[(١)] .

كيف لأب لم يعط أولاده حقهم فى الحياة أن يكلفهم بصناعة الحياة ؟ ، وكيف لأب لم يعط أولاده حقهم من الحنان والرحمة فى صغرهم أن يطالبهم

---

(١) تربية الأولاد فى الإسلام

بحقه من البر والحنان والرحمة فى كبره ؟ ، كيف وهو لم يذقهم معنى الأبوة الحانية الرحيمة ينتظر منهم بنوة بارة وفيّة ؟! .

هكذا علمنا رسول الله ﷺ : « أن لكل نتيجة مقدمة ، ولكل غاية سبيلها الموصلة إليها ، هكذا علمنا رسول الله ﷺ كيف يكون بر الآباء بالأبناء سبباً مباشر لبر الأبناء بالآباء ، بل وبالمجتمع كله .

وعلى هذه المعانى الرائعة تربى الصحابة الكرام ، فقد ورد أن عمر أرسل لرجل لكى يعطيه إمرة بلد من البلدان ، فدخل على عمر وهو يقبل أحد أبناءه ، فقال له يا أمير المؤمنين ، تقبل الولدان وأنت أمير المؤمنين ، فقال له عمر : ألك ولد ؟ قال : نعم ، قال : هل قبّلت أحداً منهم ، قال : لا ، قال : اذهب ، من لا يرحم لا يرحم ، كيف أعطيك إمارة وليس فى قلبك رحمة ؟ كيف تتعامل مع الرعية إذاً ؟!! .

هكذا علمنا ﷺ كى ننتظر قطاف البر من الأبناء أن نزرعه فيهم منذ وجودهم ونتعهده ونرعاه حتى إذا ما استدعته فينا الحاجة وتطلبه لنا الضعف وجدناه رياناً فياضاً يحمل عنا ثقل الأيام ، ويروى فينا العود الذى اعتصرته السنون .

المبحث الثانى
اللهم ارحمهما فإنى أرحمهما

إن الرحمة خُلق طبيعى وسجيّة متغلغله من نسيج الأبوة السوية أما فيما عدا علاقة الآباء بالأبناء فتتفاوت الرحمة فى القلوب وتختلف باختلاف الأشخاص وتبعد عن المثال أو تقترب حسب نصيب الإنسان منها .

أما رحمة رسول الله ﷺ فكانت المثال المطلق لكل رحمة والنبع الصافى الفياض لكل متزود ، يفيض سناها على كل من معه وكل ما حوله وهذا أسامة ابن زيد رضى الله عنهما حب رسول الله ﷺ ، وابن حبه زيد بن حارثه الذى اختار رقه لرسول الله ﷺ وبقاءه عنده على حريته وعودته لأبيه وقومه وماله وجاهه وذلك لما وجد فى رسول الله ﷺ من معانى الأبوة الحقة والرحمة المطلقة التى يفتقدها بعض الآباء ممن يجهلون مقتضيات الأبوة ومدى حق الأبناء على الآباء ، فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن اتخذه ولداً بالتبنى فكان يدعى زيد بن محمد إلى أن نزل الوحى بتحريم التبنى ، قال تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥) ﴾ [الأحزاب : ٤ ، ٥] .

أما زيد فهو من قبل العتق وبعده ، وقبل التبنى وبعده ، وبعد أن عاد زيد ابن حارثة ، لم تغير تلك المسميات من مكانته عند رسول الله ﷺ إذ هو حِبه ، وكفى بها مكرمة تفوق كل المكرمات .

وامتدت تلك المشاعر الصادقة النبيلة التى تشع أبوه عطوفه حانية إلى أسامة ابن زيد فإذ به يتوج بأبهى تاج ويزين بأحلى لقب وأكرمه « حب رسول الله وابن حب رسول الله » ، وأى حب أعظم من حب رسول الله ﷺ ، إنه ليس مجرد محبة إنسان لإنسان ، إنما هو الدليل والبرهان على حب الله تبارك وتعالى ورضاه ، يا لك من مكرم سعيد الدارين يا حب رسول الله ، كرامة ظلت تحتضن أسامة رضي الله عنه ، حتى أن رسول الله ﷺ لم يشغله مرض الموت وتباريحه عن الدعاء لأسامة ، والوصية به ، بل ويؤمّره على جيش عظيم فيه أكابر الصحابة الكرام رضى الله عنهم أجمعين وهو لم يزل على أول درجات الشباب ، فكان خير قائد لخير جيش ، وها هو أسامة رضي الله عنه الذى يبثنا صورة مشرقة تبين حب رسول الله ﷺ له ورحمته به .

عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما : « **كان رسول الله ﷺ يأخذنى فيقعدنى على فخذه ويقعد الحسن على فخذهُ الأخرى ، ثم يضمنا ثم يقول : اللهم ارحمهما فإنى أرحمهما** » [1] .

إن رسول الله ﷺ وهو مبعوث الحق إلى الخلق ، وهو مبلغ غيث السماء إلى الأرض فتحيي بإذن ربها بعد موات ، وهو يربى الرجال والنساء على السواء وهو يخوض المعارك تلو المعارك ليغزو بنور الحق غياهب الباطل ويجلو عن القلوب ظلمات الشرك والكفر بنور الإيمان وعزم اليقين ، وهو يربى الأمة ويرتفع بها حيث ينبغى لها أن تكون .

لم ينسَ مع تلك المسئوليات الجسام أطفال الأمة ، بل اتسع وقته المبارك لحملهم وتدليلهم وملاطفتهم وتعليمهم وتربيتهم ، واتسع قلبه الفياض

---

(١) البخارى ، باب وضع الصبى على الفخذ ، كتاب الأدب .

لاحتضانهم وتقبيلهم والدعاء المخلص لهم ، كل هذا فى حنو بالغ ورقة وافرة وحب صادق فى أرقى معانيه ، رسول الله ﷺ يحمل أسامة رضي الله عنه على فخذه ويحمل الحسن رضي الله عنه على الأخرى .

الحسن بشرفه وعراقة نسبه ، وبياض بشرته ، وعلو مكانته ، واسامة بسواد لونه ورق أبوه وأمة – لولا أنهم عتقاء رسول الله ﷺ – هذا هو الحسن وهذا هو أسامة ، أو هكذا يبدوان فى موازين المجتمع الطبقى الذى للشرفاء فيه الرفعة والسيادة المطلقة ، وإن كانوا هم أنفسهم دون ذلك بكثير ، وللعبيد والموالى فيه المذلة والمهانة المطلقة ، وإن كانوا فوق ذلك بكثير ، غير أن ميزان رسـ ل الله ﷺ على غير تلك الموازين المستبده الظالمـة ، إنـه ميزان التقـوى الذى يزن القلوب لا الأبدان ، ويزن الإيمان لا الألوان ، ويزن العمل لا الجاه أو السلطان ، ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [(١)] ، أضـف إلى هـذا أن الحسين بن فاطمة حبيبة رسول الله ﷺ وأسامة بن زيد حِب رسول الله ﷺ ، فلا عجب أن يتبوءا فى قلب رسـول الله ﷺ نفس المكانة التى يتبـوءاها على فخذه ﷺ .

وتضمهما رحمته ضمة واحدة ، إنه الدفء الحانى يحتضن الأفرخ الزغب فتمنو بين أحضانه الدفيئة شباباً أصحاء فى دينهم ، أصحاء فى تراكيبهم النفسية والعصبية ، أصحاء فى أفكارهم ومشاعرهم وانتماءاتهم ، أصحاء فى تفـاعلهم مع المجتمع أخذاً وعطاءً ، ذلك أنهم عاشوا طفـولتهم الرائعة بكل مقتضياتها ، مع اعتراف بوجودهم الفاعل وما يتطلبه من حقوق .

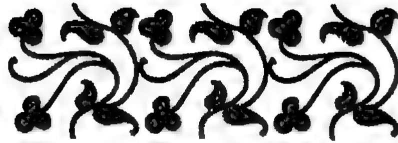
هذه هى مُكانة الحسن وأسامة رضى الله عنهما من قلب رسول الله ﷺ ،

---

(١) سورة الحجرات الاية (١٣)

ما أوفر حظهما ، وما أشرف مكانهما ، وما أرفع مكانتهما رضى الله عنهما ، وما أوفر حظ أطفال يربون تلك التربية الرائعة ، وما أروع أن يتعلم الأباء كيف تكون الأبوة الصادقة ، وما أجدر أن ينهل علماء التربية من ذلك النبع العذب الفياض الذى لا ينضب أبداً .

صلى الله وسلم وبارك على نبى الرحمة ، مؤسس علم التربية السليمة ، ومعلم البشرية كيفية الاهتمام بالإنسان فى كل أطوار حياته ﷺ .



المبحث الثالث
فجعل يمسح خدّيْ أحدهم

إن رحمة رسول الله ﷺ لأطفال بيته الكرام مدرسة عظيمة يتعلم فيها كل الآباء معنى الطفولة ومقتضياتها ومع ذلك فهى لم تقتصر على أطفاله خاصة ، وإنما احتضنت عامة الأطفال الذين أسعدتهم أقدارهم بوجود رسول الله ﷺ بينهم وهاهى قطرة من فيض رحته ﷺ ، تملأ القلوب عبقاً ، وتملأ العقول هدىً ، وتفيض على الكون رحمة وحناناً .

عن جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الأولى ثم خرج إلى أهله فخرجت معه فاستقبله ولدان فجعل يمسح خدى أحدهم واحداً واحداً وأما أنا فمسح خدى فوجدت ليده برداً كأنما أخرجت من جونة عطار » [(١)] .

لك الله يا مساجد الله ، لك الله وقد أغلقت بين الصلوات الأبواب ، وبكى المحراب ، وسخصت المآذن تشكو وتستغيث !! ، لك الله يا مساجد الله حينما يشدو النداء ، فيرتجع خلال الجد ان إذ لا مرابطون ، لك الله يا مساجد الله وقد ثقلت إليك الخطى وتقلصت فيك الصفوف .

أما أنت أيها الفجر الندى ، فلك الله ، ثم لك الله ، ثم لك الله . أيتها الصلاة المباركة الحزينة ، إذ تشهدك الملائكة ، وتغدق فيك الأرزاق ، وتأتى ببسرى ميلاد يوم جديد ، ثم ينادى فيك المنادى حى على الفلاح فينادى الشيطان فى كثير من الآذان ، حى على الرقاد بعد ليل اللهو والمجون ، أما قيام

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٣٢٩) .

الليل واستغفار الأسحار ، فلا أستطيع له رثاء ، إذ مصابنا فيه فوق كل مصاب وفوق كل رثاء ، إن بيننا وبين مجتمع رسول الله ﷺ بون شاسع وخطب جلل، قد أصاب العقائد وزلزل القلوب .

إن فجر رسول الله ﷺ والقرون الفاضلة بعده لم يكن يقظاً فى قلوب الرجال فحسب ، وإنما كان أسراباً من القلوب النورانية تتسابق إلى رضوان الله تبارك وتعالى يدفعها الإيمان ، ويحدوها الأمل ، وينعشها الرجاء ، تحرص فيه النساء على الخير كحرص الرجال بل ويسبقهم إليه الأطفال ، فأكرم به من مجتمع تنعم برضوان الله عز وجل ، ومع صحابى جليل نعيش لحظات رائعة ، تحكى ملمحاً من طفولته السعيدة المؤمنة .

يخرج رسول الله ﷺ من صلاة الصبح ، فيفيض على المدينة بهاءً ونداً بقلبه المسبح وجوارحه المتوضئة ، ووجهه النورانى ، وجبهته المتلالئ فيها أثر السجود ولسانه الذاكر ومشاعرة الفياضة فتستقبله الولدان إستقبال الأب الحانى بعد عود حميد من سفر بعيد .

استقبله الوالدان كعادة الطفل حين يرفرف قلبه قبل يديه ، وتطوى مشاعره المسافات قبل رجليه مندفعاً نحو من يحنو عليه ، ويترفق به ، قصد الوالدان نبع الرّى ، ومنبع الحنان ، فاحتض ﷺ مشاعرهم بقلبه الفياض واحتضن أرواحهم بروحه الطاهر ، واحتضن وجوههم بيديه الشريفين واحداً واحداً فإذا به يروى ظمأهم وينعش وجدانهم ، ويغرس الثقة فى نفوسهم ، ويؤكد ذاتية كل منهم ، ويزودهم بخير زاد ينطلقون به نحو المستقبل بخطاً ثابتة ونفوس قوية ، متلقين منهج الله سبحانه وتعالى فى حب ويقين ، عاملين به فى إخلاص وتفانٍ ، حاملين رسالة الله للأمة على خير وجه فى الغد القريب ، زادهم التقوى والإيمان وقدوتهم الرحمة المهداة والسراج المنير ﷺ .

المبحث الرابع
فأسمع بكاء الصبى فأتجوز فى صلاتى

كثيراً ما تكون فظاظة المربى عازلاً للصوت بين لسانه وأذن من يربى ، وعازلاً للتواصل بين قلبه وقلوبهم ، عازلاً للنور بين علمه وعقولهم ، فالمتلقى ليس حائطاً من رخام تنقش عليه طلاسم ورموز ، وليس وعاءً من خزف نصب فيه أفكار ومعتقدات ، وليس لوحاً ممغنطاً لاختزان المعارف والعلوم ، إنما هو إحساس ومشاعر ، وانفعالات وتفاعل مع الأشخاص والأهداف ، والحواجز النفسية التى تنشأ بين المربى ومن يربيهم هى أهم معوقات العملية التربوية ، لذا فقد وجب لنجاحها توافر القدوة الحسنة التى تقدر المشاعر وتحترمها والتى تنتهج المنهج القويم وأساليب التربية الواعيدة الناضجة ، يحدوها الإخلاص فى الدعوة والرحمة واللين فى المعاملة ، وكلها مقومات تصل بالناشئة إلى قمة ما يصبوا إليه المربى فى يسر وبساطه .

وهذا ما صاغه رسول الله ﷺ واقعاً حياً صادقاً مثمراً قبل أن يلقنه دروساً ومحاضرات ، وها هو ﷺ يعطينا صورة صادقة لرحمة المربى العظيم ومدى شفقته وحنوه .

عن أبى قتادة الأنصارى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **إنى لأقوم فى الصلاة أريد أن أطولها فأسمع بكاء الصبى فأتجوز فى صلاتى كراهية أن أشق على أمه** » [1] .

إن رسول الله ﷺ إذ يرحم الرجال والنساء والأطفال وكل من حوله من

---

(١) البخارى ، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبى ، كتاب الأذان .

مخلوقات الرحمن فلا عجب إذ هو الرؤف الرحيم ، أما أن ينتزعه بكاء صبى من روعة وقوفه بين يدى الله تبارك وتعالى فيتجوز فى صلاته وهى قرة عينه ﷺ ، لذلك أدعى للدهشة والعجب ، إذ أن نبرات الصبى على ضعفها قد اخترقت ذلك الملكوت السامى عبر أثير رحمته ﷺ ، وصولاً إلى قلبه المحوّم حول عرش الرحمن تباركت أسماؤه ، عائدة به إلى التجور ، فرقاً على الصبى وكراهية المشقة على أمة ، ليت الآباء يتعلمون حقيقة الرحمة على الأبناء ، وليت الأزواج يتعلمون حقيقة الرحمة بأمهات أطفالهم ، وليت دعاة الخير وقائدى الركب إلى الله تبارك وتعالى يعون حقيقة الدعوة ومعنى الرحمة فيها .

فرسول الله ﷺ لم ينتهر الأمهات ، ولم يأمرهن بالمكث بأطفالهن فى بيوتهن بعيداً عن فيوضات الرحمة فى المسجد ، ولم يحطم رغبتهن فى الاستزادة من الخير ، والتزود بالروحانيات الراقية ، إذ هى غسيل همومهن وزيت سراجهن ، وزادهن عبر دروب الحياة المليئة بالمعوقات المادية والملهيات البراقة ، إن تربية الأمهات هى الزاد الحقيق لتربية الأبناء وتوجيههم الوجهة الصحيحة .

وليس النبت فى جنان كمثل النبت ينبت فى الفلاة
وهل يرجى لأطفال كمال إذا رضعوا ثدى الناقصات .؟

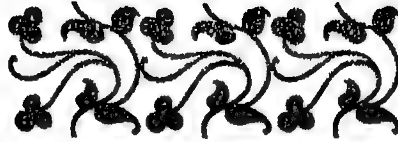
ما الظن بامرأة قلبها معلق بالمسجد، تتلقى فيه المنهج وتحارب فيه الجهل وتتزود فيه من الإيمان والتقوى ، وتغسل فيه الأحزان ، فإذ بجهلها يتحول إلى علم وفقه ، وثرثرتها إلى تسبيح وتهليل ، ونميمتها إلى استغفار وتوبة ، وأنانيتها إلى إحساس بالمسئولية وتقدير لعواقب الأمور .

أى أمرأة تكون ؟ ، وأى زوج تكون ، وأى أم تكون ؟ .

ما الظن بطفل كان المسجد حضانته الأولى ، وكان نور الإيمان مهده الوثير ، تفتحت أذناه على نداء الحق ونور التوحيد ، وتفتحت عيناه على بهاء

الركوع وجلال السجود ، وتفتح عقله على حلق العلم ومجالسة العلماء ، وتفتح قلبه على روعة الإيمان وجمال اليقين ، أى رجل يكون هذا الطفل بعد ؟ .

وهل يجد الفساد فيه أى مطمع ، أو يجد الانحراف والضياع إليه من سبيل ؟ ، إن رحمته ﷺ بأطفال المسلمين فوق كل رحمه ، إذ هم ثروة الأمة المأمولة ومستقبلها المرجو ، وأملها المنشود ، فهم المزرعة الخصبة ، والنبتة اليانعة ، والزهرة المتفتحة ، والثمرة المرجوه ، هم استمرار الأمة ، وامتدادها المبارك .



الفصل الخامس

رحمته ﷺ بالخدم والعبيد

المبحث الأول : إخوانكم خولكم .

المبحث الثاني : فإنه ولي علاجه .

المبحث الثالث : اعلم أبا مسعود .

المبحث الرابع : اللهم كثر ماله وولده .

المبحث الأول
إخوانكـم خوالكـم

صنف من الناس يحسبه البعض نوعا آخر من المخلوقات ، لا حياة له إلا أشباحاً يتلوى ألماً بين أبخرة الطهو ودخان ماء الغسيل ، وغبار تنظيف البيت ورائحة عرق العمل الشاق المتواصل فى المزرعة أو المتجر ، أو غير ذلك من الأعمال الشاقة ، مخلوقات ليس لها ثقل اجتماعى ، ولا وجود وجدانى ، ولا حق إنسانى ،ليس لها حرية التعبير عن نفسها ولا الإحساس بوجودها ولا مجرد الشكوى من متاعب العمل ومذلة السخرة وامتهان المشاعر ، إنما هم سِفْلة القوم ومظهر من مظاهر الوجاهة الإجتماعية لكل سيد استعبد أكبر عدد منهم ، إذ هم ثروة قيمتها الدراهم المستثمرة فيهم ، شأنهم فى ذلك شأن مقتنيات الأسرة من متاع وأساس ، بل وأنعام .

صنف من الناس ألجأهم الأسر والاستعباد ، إلى الامتهان والمذلة ، لم يأبه لحياتهم أحد ، ولم يأبه لموتهم أحد إلا على سبيل الخسارة المادية فى المال المفقود بموتهم أو الحاجة إلى من يقوم بدورهم فى السخرة والاستعباد ، صنف من الناس أحرى بهم إن قالوا ألا يُسمعوا ، وإن غابوا ألا يفتقدوا ، وإن خطبوا ألا ينكحو ، وإن استأذنوا على كبير ألا يؤذن لهم ، هكذا هم فى الميزان الاجتماعى ، أو على الأقل فى ميزان السواد الأعظم من المجتمع ، ميزان مطفف ونظرة مستبدة ظالمة لأخوة فى الإنسانية كان عليهم أن يدفعوا ضريبة فقرهم ، أو سواد لونهم ، أو قلة جاههم ، وكانت الضريبة جد فادحة إذ أنها سحق إنسانيتهم ، وامتهان كرامتهم ، وعدم الاعتراف لهم بأى وجود .

وكان لابد للدين الذى جاء بخير البشرية إذ يؤكد إنسانية الإنسان أياً كان لونه أو جنسه أو نسبه وينظم العلائق الاجتماعية الإنسانية ، أن يتناول تلك

الشريحة المسحوقة مقرراً وجودها الإنسانى ، محدداً مالها وما عليها من الحقوق والواجبات ، موضحاً أسباب المفاضلة بين البشر وميزانها الصحيح ، ميزان الله تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾[الحجرات : ١٣] .

وكان رسول الله ﷺ هو الترجمة العملية لأخلاق الدين الحنيف -- كأنما هو قرآن يمشى على الأرض -- لذا فقد رغب ﷺ فى عتق الإماء والعبيد رحمة بهم فقال : « **أيما رجل أعتق امرأ مسلماً استنقذ الله بكل عضو منه عضواً من النار** » (١) .

هكذا ظل رسول الله ﷺ يرقق القلوب عليهم بل ويدافع عنهم دفاع من حمل على كاهلة مسئولية رفع الظلم من المظلومين ، بل وعن الظالمين أنفسهم ومواقفه ﷺ فى هذا الميدان منهج كامل لرد إنسانية الضعفاء السلبية رداً جميلاً ورد ظلم الظالم عن نفسه رداً يوقفه على حد إنسانيته فلا يتعداها إلى الوحشية الطاغية وهاك بعضها .

فعن المعرو بن سويد قال : لقيت أبا ذر الغفارى رضي الله عنه وعليه حلة وعلى غلامه حله فسألته عن ذلك فقال : سابيت رجلاً فشكانى إلى النبى ﷺ **فقال النبى ﷺ : أعيرته بأمه ؟** (وفى رواية : **إنك امرؤ فيك جاهلية**) **إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم** » (٢) .

---

(١) البخارى ، باب : العتق وفضله .
(٢) البخارى ، باب : العتق وفضله ، باب قول النبى ﷺ : « العبيد إخوانكم فأطعموهم مما تأكلون » .

رأى الرجل أبا ذر رضي الله عنه يلبس حلة ولا غرابة فى هذا فهو حر وللحر أن يلبس ما يشاء وقتما شاء ، أما أن يلبس غلامه أختها فهذا ما أدهش الرجل وآثار تساؤله عن العلة الكامنه خلف هذا المنظر العجيب ، إذ كيف لعبد أن يلبس حلة مثل سيده فى مجتمع فيه للعبد ما للدابة من حق – هذا إذا اعترف له بحق ! – .

فماذا كان جواب أبى ذر رضي الله عنه ؟ ، سابيت رجلاً فشكانى إلى رسول الله ﷺ ، فمن يكون ذلك الرجل ؟ إنه بلال بن رباح عبد أسود ميت فى رقه مقبور ، فما ذله معذب بهوانه على الناس ، هكذا كان فى الجاهلية رضي الله عنه .

وكان من الممكن أن يحيى حياة العدم ويموت موت الهوام دون أن يشعر به قلب ، أو تسمع به أذن ، أو تطرف له عين ، لولا أن أحياه الإسلام من موات العبودية لغير الله ، بعز العبودية الخالصة لله ، وعز العتق المخلص لله عز جاهه ، فكان سيداً عظيماً من سادات الصحابة وكبرائها حتى قال فيه سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » بعث بلال بن رباح مرتين حيث حطم رسول الله ﷺ قيد روحه بالإسلام ثم حطم أبو بكر رضي الله عنه بالعتق أغلال جسده بالعتق ، فانطلق عملاقاً قوى الإرادة ،عالى الهمة راقى المطمح .

فإذا بصوته الذى لم يخرج من جوفه يوماً ، ولم يستطع التعبير عن صاحبه لحظة منطلقاً ملء الآفاق بالتكبير يتحدى كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب انطلق الصوت الذى طالما ظل حبيساً لا ليعبر عن صاحبه فقط إنما معبراً عن دعوة الحق هدية السماء إلى الأرض .

انطلق الصوت المؤمن الموحد يدكدك ممالك الظلم ، ويزلزل عروش الطغاة ، وأنى لهذا الصوت المنطلق أن يسكت بعد وقد أذابت عزة التكبير المطلق لله فيه أى استسلام لظلم ظالم ، أو استكانة لذل كبير .

بعزة المؤمن وإبائه اشتكى بلال أبا ذر رضى الله عنهما إلى رسول الله ﷺ على استطاعة منه أن ينتصر لنفسه بما أتاه الإسلام من عزة فى النفس ، وقوة فى الحق ، غير أنه آثر انتصار رسول الله ﷺ له وجاء النصر المبين ، جاءت غضبة رسول الله ﷺ لبلال رضي الله عنه ، ولكل بلال أنى وجد إلى يوم القيامة ، وانطلق السؤال المستنكر المعاتب المعنف : أعيرته بأمه ؟، أعيرته بسواد بشرتها ؟، أعيرته بما لا اختيار له فيه ولا سابق رأى ؟ أقيمته بميزان الجاهلية القاسط الأعمى ؟ « إنك امرؤٌ فيك جاهلية » جاهلية الحكم على الظواهر دونما الالتفات لحقيقة الأمور ، جاهلية التقييم المادى للإنسان ، دونما اعتبار لروحه وإنسانيته .

نعم ، هى مقاييس الجاهلية بعينها التى تقيس الإنسان بجاهه أو سلطانه أو ثروته ، لا بقيمته الحقيقية فى ميزان الله تبارك وتعالى ، فإذا الرجل بجاهه وسلطانه وسطوته وماله يزن فى تقدير المجتمع مثاقيل الجبال ، ثم إذا انقضى عنه كل ذلك لا يزن هو هو وبالميزان نفسه مثقال الذرّة أو دونها ، غير أن ميزان الإسلام على غير هذا العبث وذاك الإجحاف إذ هو ميزان القلوب لا الأجساد ، ميزان العقول لا الأموال ، ميزان العقيدة لا الجاه أو السلطان ، ميزان كان فيه ساقا ابن مسعود رضي الله عنه على دقتهما ونحولهما أثقل عند الله تبارك وتعالى من جبل أحد على ضخامته وامتداده وشموخه ﴿ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤) ﴾ [آل عمران : ٧٣ ، ٧٤] .

أعيرته بأمه ؟ تعنيف واستكبار اقتلع من قلب الرجل آخر أثر لتحقير جنس أو لون أو ورقة حال .

إذا لم تكن نفس الشريف شريفة ... وإن كان ذا قدر فليس له شرف

تقرير ينفى كمال الأبيض لمجرد بياض بشرته ، وينفى عن الحر مطلق

الفضيلة لمجرد أن عافاه الله سبحانه وتعالى من الرق لغيره من البشر ، وينفى عن ذى الجاه مطلق الكرامة لمجرد أن أتاه الله الجاه والسلطان فربما كانت هذه النعم نقمة وحسرة وندامة على صاحبها فى الآخرة .

إخوانكم خولكم : المبدأ العام الذى يحكم العلاقات بين المسلمين هو الأخوة التى لا تلتفت إلى لون أو جنس أو تفاوت فى الطبقات .

الأخوة أولاً ، ثم توزع المقدرات والأعمال بحسب علم الله تبارك وتعالى ومقتضى حكمته فى خلقه ، إذ لم يكن غنى غنيٌّ لكرامته على الله سبحانه وتعالى ، ولم يكن فقر فقير لهوانه عليه ، إنما هى حكمة الله وسابق علمه لخير عباده .

إن بلالاً وهو فى الأرض من أهل الصُّفة ، ليسمع رسول الله ﷺ صوت خطاه رضي الله عنه فى الجنة ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، خادمك فى حسك أيها المسلم ، لابد وأن يكون أخوك أولاً ثم مساعدك وعونك على قضاء حوائجك ثانياً .

جعله الله تحت يدك فأنت مؤتمن عليه مأخوذاً أو مكافأ به وهذا أدعى أن ترفق به وترحمه ، أو بالأحرى أن ترحم نفسك فيه ومقتضى هذا أن تطعم أخاك مما تأكل ، وأن تلبسه مما تلبس ، وألا يستأثر بخير دونه تعاليا عليه ، أو احتقاراً له ، فتدمى مشاعره وتكسر قلبه ، إذ تشعره بالدونية والصغار ، ولا تكلفه ما لا طاقة له به ، إذ هو بشر محدود الطاقة عادى القدرة مثلك . فإن اقتضى العمل جهداً فوق طاقته فأعنه بنفسك أو غيرك ، كن رحيماً رفيقاً بمقتضى أخوة الإسلام وأخوة الإنسانية فلخادمك المسلم عليك حقوق ثلاث ، حق الإسلام ، وحق الإنسانية ، وحق خدمته لك ومعونته إياك .

كان هذا درساً عملياً حياً تلقاه أبو ذر رضي الله عنه فوعاه حق الوعى وعاش على

هديه ما بقيت فيه حياة ، صلى الله وسلم وبارك على من أرسله ربه رحمة للعالمين ، ورضى الله عن صحابته الكرام الأبرار ، الذى كان قولهم إذ دعوا إلى الله ورسوله أن يقولوا : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

وحيا الله مجتمعاً تراحم فيما بينه واهتدى بهدى نبيه العظيم ، وما أسعد العالم لو تخلق بتلك الأخلاق العظيمة الرفيعه ، إذا لانتهت المآسى واختفت المجاعات وتحرر الرق المقنع وانطفأت نيران الصراع الوحشى على مستوى الأفراد والمجتمعات ، وعمت الرحمة والمودة .

المبحث الثانى
فإنـــه ولـــى علاجـــه

كان رسول الله ﷺ حريصاً كل الحرص على مشاعر تلك الفئة من الناس كان حريصاً على جبر كسرهم ، والإحسان إليهم ، وتأكيد أحقيتهم فى حياة إنسانية كريمة ، حتى إن إحساسه ﷺ بالمسئولية تجاههم كان فى داخله - حتى آخر لحظات حياته المباركة - أقوى من آلام النزع وسكرات الموت إذ انطلق من فوق فراش الموت وصية بهم خالدة إلى يوم الدين ، **« الصـــلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم »** [(١)] .

الصلاة حق لله تبارك وتعالى وهو الغنى العزيز ذو القوة المطلقة وأنت فيها العبد الضعيف الذليل ، ثم ملك يمينك هم الضعفاء الأرقاء وأنت لهم السيد المطاع المالك ، ما أروع أن يقرن رسول الله ﷺ فى وصيته الخالدة بين هاتين الصورتين المتباينتين للعبد ، تذكرك صلاتك يا عبدا لله أنك العبد الرفيق ، أمام الرب العظيم بحوله وطوله وسلطانه وقوته وجبروته ، فتضرع إليه ضراعة المسىء الآبق المتزلف ترجو رحمته وتخشى عذابه .

حتى إذا صرت فى جاهك وخدمك ومالك ، لم يساورك خاطر التأله على عباد الله والقسوة عليهم والبطش بهم ، حتى وإن كانـوا لك رقيقاً وملك يمين ، إذ أنك وما ملكت يداك لله الواحد القهار ، اكسبتك صلاتك معنى العبودية الحقة للمالك المطلق ، ومعنى التواضع الحق للسيد المطلق ، ومعنى الافتقار الحق للغنى المطلق ، ومعنى الضراعة الحقة لرحمن الدنيا والآخرة

---

(١) صحيح ، جاء عن أم سليم وأنس بن مالك .

ورحيمهما ، فتحيى إنسان فى حدود إنسانيتك ، بلا تجبر ولا تكبر ولا قسوة ولا استعلاء لتنال رحمة الله تبارك وتعالى ، وهل يطمع قط غليظ القلب عاتى النفس ، قاسى على عباد الله فى رحمة الله ؟! ، إنها وصية ذكية رحيمة تضع الموازين فى نصابها الصحيح ، فإذا أنت وخادمك أو ملك يمنك **« كلكم لآدم وآدم من تراب »** (١) .

إنما هى شجرة واحدة إنسانية المنبت آدمية الجذور وإن تعددت الفروع وتشعبت . بذلك المفهوم البسيط وتلك الحقيقة الواضحة يهدينا أبو هريرة رضي الله عنه زهرة رائعة الحسن فواحة العطر رقيقة الحسن رحيمة تبوح لنا بوصية النبى ﷺ حيث قال : **« إذا أتى أحدكم خادمة بطعام فإن لم يجلسه فيناوله لقمة أو لقمتين أو أكلة أو أكلتين ، فإنه ولى علاجه »** (٢) .

من منطلق الأخوة فى الإسلام فإنما خادمك هو أخوك ، مع تقديم معنى الأخوة على معنى الاستخدام ، وعلى هذا فالأولى بك إذا أتاك أخوك بطعام أن تجلسه معك .

بل هذا هو الأصل ، وذلك رحمة به وتواضعا له ، وتودداً إليه ، سداً لزريعة الحقد والخيانة – إن هى وجدت لديه – فغالباً ما يؤدى تعالى بعض الناس على خدمهم ، والاستخفاف بمشاعرهم ، وامتهان إنسانيتهم إلى استثارة حفائظهم ، وإضمار الحقد والكراهية لمستخدميهم ، فتكون الطاعة خوفاً لا حباً ، ويكون العمل أمراً لا واجباً ، وتكون الخدمة إضطراراً لا ولاءً ، فينعدم الإخلاص ، وتنتفى المحبة ، وربما يؤدى الحسد والكراهية فى نفوس بعضهم إلى إتلاف ما يمكن إتلافه مما تحت يده من مال سيده ، إذ المال غالباً هو جبروت المتجبر

---

(١) صحيح ، جاء عن أم سلمة وأنس بن مالك .
(٢) صحيح البخارى ، باب إذا أتاه خادمه بطعامه ، كتاب فى الرهن فى الحضر .

وغطرسة المتكبر ، فتصبح الحياة بهذه الصورة صراع طبقى وضغائن مدمرة .

فإن لم تجلس خادمك على الطعام معك - لأى سبب بعيداً عن الكبر والبطر - فلتناوله لقمة أو لقمتين ، أو أكله أو أكلتين ، وهذا لا يقل روعة عن إجلاسك إياه على طعامك ، لأنها تترك فى نفسه أجمل الأثر وأروعة تجاهك ، وكونك تتناوله أنت بنفسك توداً ورحمة ، فهذا تأكيداً للأخوة بينمكا ، واعترافاً بالجميل ، ووفاءً له على الجهد والمشقة ، إذ هو الصانع المعالج لذاك الطعام .

المبحث الثالث
اعلـم أبـا مسعـود

إن أى نظام من النظم الاجتماعية التى تقرع لها الطبول ، حاول أن يقضى على الطبقية المقيتة فى المجتمع الواحد ، أو بين المجتمعات المختلفة ، ظلت نظرياته واقترحاته طى الكتب أو دفينة الأدراج ، إذ كلما حاولت الخروج إلى عالم التطبيق باءت بالفشل الرريع إذا اصطدمت بواقع الإنسان المادى الذى لا تحركه من داخله عقيده أو يوقفه عند الحق وازع من ضمير ، أو تثنيه عن الظلم مخافة رقيب .

أما منهج رسول الله ﷺ فهو المنهج الربانى الذى يقضى على ظلم الطبقية البشع ، إذ أنه يعزف على أوتار التقوى والخوف والرجاء والثواب والعقاب وتلك الأوتار الحساسة يدفع بعضها الإنسان مختاراً محباً لتطبيق منهج الله تبارك وتعالى ، واستجلاباً لمرضاته ، ويدفع بعضها الآخر الإنسان ، إلى التزام المنهج ، درءاً لغضب الله عز سلطانه ، واجتناباً لسخطه ، وبجناحى الخوف والرجاء يسمو المجتمع إلى آفاق المحبة والصفاء والتكامل ، فيصل إلى أقصى ما تصبو إليه الإنسانية من كمال . والحديث الشريف الذى بين أيدينا الآن ، يعزف على أوتار الخوف من الله سبحانه وتعالى فى نفس المؤمن ، بعد أن كان قد عزف على أوتار الرجاء فى الأحاديث السابقة .

« عن أبى مسعود الأنصارى قال : بينا أنا أضرب غلاماً لى ، إذ سمعت صوتاً من خلفى – اعلم أبا مسعود – مرتين ، فالتفت فإذا رسول الله ﷺ فألقيت السوط من يدى ، فقال : « والله لله أقدر عليك منك على هذا » [1] .

---

(١) مسلم ، (٢٤) ، الإيمان .

الله أكبر ، إن دعوة رسول الله ﷺ ، جاءت مناهضة للظلم والظالمين ، جاءت نصراً للضعفاء المقهورين ، جاءت نذيراً للظلمة القاسية قلوبهم ، الذين اغتالوا إنسانية الضعفاء ، فأهدروا كرامتهم ، وتعاموا عن الحق فلم يروا إلا أنفسهم ، فتكبروا وتجبروا وتعاظموا حتى صدّقوا إفكهم ، فنصبوا أنفسهم آلهة يحاسبون ضعفاءهم بلا رحمة ، ويعاقبوهم بلا شفقة ، ويلتذون بعذابهم ، إذ يطربهم صوت السياط على ظهورهم ، ولا يرضى غرورهم إلا صوت الأنين المحموم المكتوم داخل قلوب المقهورين ، ونظرات الاسترحام الكسيرة خلف دموعهم .

كان رسول الله ﷺ الرحمة التي تحمى الضعفاء المكسورين من الظلمة الجبارين، بل وتحمى الظلمة أنفسهم من عواقب ظلمهم ، وبشاعة استبدادهم، وها هو أبو مسعود الأنصارى رضي الله عنه يضعنا أمام صورة حية توضح كيف كانت العلاقة بين السيد الجليل المهاب وغلامه الضعيف الذليل ، الذى لا سند له فى الحق ولا نصير ، ويسمعنا قعقعة السوط الغاشم المستبد على الظهر المستكين الكسير .

صورة تروى مأساة البشرية ، وتجسد قانون الغاب ، بين قاهرين لا يصدهم عن القهر صاد من داخلهم أو خارجهم ، ومقهورين لا يجدون لهم ولياً ولا نصيراً من داخلهم أو خارجهم .

رأى رسول الله ﷺ تلك المأساة التى تصور ذبح الإنسانية على أعتاب الظلم والجبروت ، انطلق صوت رسول الله ﷺ لينتشل المعذب من عذاباته . وينتزع الجبار من ظلمه وجبروته . إذ الصوت أسرع فى النجدة من الخطى ، انطلق الصوت الحانى الرحيم متوعداً ومحذراً « اعلم أبا مسعود » نداء زلزل الرجل فانتفت سريعاً صوب الصوت ، فإذا رسول الله ﷺ بهيبته قد انتزع السوط من يد الرجل – وإن كان هو الذى ألقاه – « اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك

منك على هذا » .

كيف أعطيت نفسك حق تعذيب هذا الغلام على إساءة أو تقصير لمجرد أن اشتريته بدراهمك والله سبحانه وتعالى أوجدك من العدم لا من السوق ، ومنّ عليك بالنعم العظيمة التى ما راعيت حقها ، وما أديت شكرها ، وإنما تكبرت وتجبرت بها ، تجهل فى النهار فيحلم الله سبحانه وتعالى عليك وتسىء فى الليل فيستر عليك ويرزقك أطعت أم قصرت أم عصيت ، حتى إذا عدت إليه قبلك ، وإذا استغفرته غفر لك ، وأحسن إليك ، وهو الغنى عنك ، وهو الذى إذا أخذك لن يفلتك .

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [النحل : ٦١] .

ورغم هذا يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل ، كان الأجدر بك أن تتجاو عن إساءة غلامك الضعيف لديك ليتجاوز الله عن إساءتك ، كان الأولى بك أن ترحمه وأنت مثله مخلوق ضعيف ذليل ، ليرحم الله تبارك وتعالى ضعفك وذلك بين يديه ، إذ لا ناصر لك ولا شفيع إلا بإذنه .

عظة بليغة أوقفت الرجل على حقيقة طالما اختبأت منه خلف فكر المجتمع الظالم المستبد ، فأجلت تلك الظلمة عن قلبه ، وانتزعت من حناياه آخر ذرة من الكبر والبطر والجبروت ، درس رائع عظيم ، إذا وعته الأمة أثمر فى قلبها الرحمة والرأفه وأورق العود وطاب الثمر ، فلا تجد إلا مجتمعاً فاضلاً راحماً متراحماً .

المبحث الرابع
اللهم أكثر مالـه وولـده

عشنا مع رسول الله ﷺ وهو يرسي القواعد الأخلاقية في المجتمع الإسلامي ، وينظم العلاقة بين أفراده وجماعاته على أساس من التراحم والأخوة والتسامح ، أما الآن فقد آن لنا أن نعيش معه ﷺ المثل الحيي لدعوته المباركة ، والقدوة الحسنة لكل متخلق بأخلاقه ومقتدٍ بشخصه الكريم . يصحبنا تلك الحظات الرائعة أنس بن مالك رضي الله عنه قائلاً : « **خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط ولا لم صنعت ولا ألا صنعت** » [(١)] .

من الذى يصحبنا تلك اللحظات الرائعة في بيت النبوة الطاهر الكريم ؟ ، إنه سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، خادم رسول الله ﷺ شاهد الصدق ، ودليل الحق – وحاش لرسول الله ﷺ أن يعوزنا فيه شاهد أو دليل – .

إن رحمة رسول الله ﷺ بخادمه رضي الله عنه لم تقف عند مشاركته إياه في المطعم والملبس ، وتكليفه قدر طاقته وحسب ، إنما تعدت ذلك إلى ما هو أسمى وأجل ، إلى ما هو أوسع رفقاً وأعلى رحمة وأرفع تكرماً وأروع إحساناً ، خدم أنس بن مالك رضي الله عنه رسول الله ﷺ عشر سنين هي مدة إشراقه المبارك على المدينة المنورة .

خلال عشر سنين من المعايشة التامة ، والمخالطة الدائمة ، ما قال رسول الله ﷺ لخادمه أف قط ، فضلاً عن التعنيف أو السب أو الضرب والإيلام ، ما ضاق به يوماً ولا اعترض على فعل أو تركٍ ، بل أعطاه الثقة بنفسه ، وحرية

---

(١) صحيح البخاري ، باب حُسن الخُلق والسخاء وما يكره من البخل ، كتاب الأدب .

التصرف ، وجرأة الاختيار على صغر سنه وحداثة خبرته ، فكان أنس رضي الله عنه خير خادم لأكرم مخدوم ، غير أنه لابد قطعاً أن يحدث خلال عشر سنوات تصرفات قلت أو كثرت من أنس يمكنها أن تستثير غضب رسول الله ﷺ ، أخطاء لم يتعمدها أنس بالطبع وإنما أتت من جهة اختلاف وجهات النظر ، أو فهم لأمرٍ ما على خلاف ما أراده رسول الله ﷺ ، أو أى شيء من هذا القبيل ، لكن رسول الله ﷺ أغضى تفضلاً وإحساناً ورحمة وتعليماً للأمة ، كيف يكون العفو عند المقدرة ، وكيف يكون ضبط النفس عند الغضب ، وفوق هذا كيف يكون الإحسان مقابل الإساءة ؟ ولم لا وهو يستحث المؤمنين صباح مساء .

﴿ وسارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران : ١٣٣ ، ١٣٤] .

ما أعظمها من رحمة فياضة ، وما أكرمها من أخلاق فاضلة ، لم تظل نظريات جوفاء ، ولم تتبعثر فى خطب رنانة ، إنما كانت واقعاً يحياه المجتمع الفاضل تأسياً بالمربى الكريم ، والنبى الرحيم محمد بن عبد الله رحمة الله للعالمين ﷺ ، الذى ظل يعمل جاهداً على غرس روح الأخوة والمحبة والتراحم فى المجتمع وتطهيره من معنى الطبقية القائمة على أساس المفاضلة بين الناس بالمال أو الجاه ، أو الوجاهة الاجتماعية ، أو غير ذلك من عرض الدنيا غير أنه ﷺ كان يدعو دائماً إلى العمل والإيجابية والجد والإجتهاد ، ناهياً عن التواكل والسلبية والإنسحاب من معترك الحياة ، إنما يعمل الإنسان جهده ويبذل طاقته فى تحصيل رزقه المادى والعلمى ، إذ الأخذ بأسباب القوة العلمية والمادية من دواعى النصر والتمكين للأمة المسلمة ، ولهذا نراه ﷺ لم يبعد عن هذا حين طلبت منه أم سليم رضى الله عنها أن يدعو لابنها أنس ، إذ قالت : « أنس خادمك ، أدع الله له ، **قال : اللهم أكثر ماله وولده وبارك**

له فيما أعطيته » [(١)] .

إن قلة المال أو الجاه تضطر صاحبها أن يعين موسر بنفسه على قضاء حوائجه مقابل أن يعينه ذلك الموسر بماله على متطلبات الحياة ، ولهذا فالخادم دائماً أقل مالاً وأضعف جاهاً ومن هنا جاءت دعوة رسول الله ﷺ لأنس رضي الله عنه بكثرة المال والولد ، وهذان يكسبان الرفعة والسيادة في المجتمع ، وإن كان سيدا على الحقيقة بصدق إيمانه وعظيم علمه الذى تلقاه من متلقى الوحى مباشرة ﷺ وبخدمته لسيد الخلق ﷺ وكفى بها عز وشرف ، فإنى لا أشك فى أن أى مسلم صادق الإيمان ليتمنى لو باستطاعته أن يشرف بخدمة خادم رسول الله ﷺ فذلك شرف الدهر وعزة .

وقد تحققت دعوة رسول الله ﷺ لأنس رضي الله عنه بفضل الله تعالى ومنه ثم بدعاء رسول الله ﷺ له وإيجابية أنس رضي الله عنه فى السعى والجد ، فكان ماله وولده من الكثرة بمكان .

ولإن كانت دعوة رسول الله ﷺ لأنس رضي الله عنه هى كثرة المال والولد ، وهو كما نرى مطلب دنيوى فذلك أن أنساً رضي الله عنه كان مؤمناً صادق الإيمان ربما زاده المال والولد تقربا إلى الله عز وجل بإنفاقه المال فى سبيل الله ، وجهاد بنيه لإعلاء كلمة الله عز سلطانه والمال الصالح والولد الصالح يكونان فى ميزان الرجل الصالح يوم القيامة يزيداه خيراً على خير ودرجة فوق درجته .

هذا هو شعور رسول الله ﷺ تجاه خادمه ، وتلك رحمته ﷺ به وبأمه أم سليم رضى الله عنهما ، وجمعنا بهما فى دار كرامته – وإن كان البون بيننا شاسع والهوة سحيقة – .

---

(١) صحيح البخارى ، باب الدعاء بكثرة المال مع البركة ، كتاب الدعاء .

الفصل السادس
رحمته ﷺ بغير المسلمين

المبحث الأول : إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين .

المبحث الثاني : أطلقوا ثمامه .

المبحث الثالث : نعم صلي أمك .

المبحث الرابع : الحمد لله الذي أنقذه من النار .

المبحث الخامس : وألبسه قميصه .

المبحث الأول
إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين

الظلم كلمة مقززة كريهة الطعم واللون والرائحة ، حسكية الملمس ، شيطانية المنظر ، لا تصدر عن قلب فيه حياة ، وهل لقلب ينبض بحياة أن يتلذذ بظلم الآخرين والإجحاف بهم ؟ هذا والله بشع مرير .

أما الأدهى والأمر فهو أن يظلم الإنسان نفسه ، ذلك أن الظالم غيره إنما يرضى بهذا الظلم نفسه ، ولكن أن يظلم هو نفسه فتلك كارثة الكوارث وأم المصائب ، أما إن يتدنى ظلم الإنسان لنفسه فينزلها منزلة دون الأنعام ، أما أن يمتهن عقله الذى كرمه الله تبارك وتعالى فيجعله دون السفاهة بدركات ، أما أن يستذل جبهته التى خصها الله تبارك وتعالى بالشموخ والرفعة ، فيهوى بها ساجداً لحجر أو شجر أو بشر ، فذلك ما لا طاقة للعقل على استساغته .

إن إنساناً بتلك السفاهة ما نال من الإنسانية إلا اسمها ، وما حظى من البشرية إلا رسمها ، وما زاد المخلوقات إلا مخلوقات شائها قبيح النفس مطموس البصيرة غير خليق أن يرحمه أحد ذلك أنه لم يرحم نفسه ولم ينزلها حيث أنزلها الله تبارك وتعالى فحق له الامتهان والتحقير والقسوة أو هكذا يكون نصيبه منا كبشر عاديين ، أما رسول الله ﷺ فمقاييسه وتقديراته تختلف إذ هو الطبيب المنوط به معالجة المرضى.وإن استعصى العلاج ، والسراج المبعوث لهداية الضالة رغم مكابرتهم وحرصهم على الضلال ، والدليل الذى يتوغل فى صحراء التيه ليهدى التائهين ويرد الشاردين ويستنقذ المغررين .

لهذا كان فيض رحمته ﷺ بتلك الفئة الضالة ، إذ يلين لهم الجانب ضنا بهم على النار ، ويتودد إليهم علّهم يثوبوا إلى رشدهم ويرتفعوا على انحطاطهم فى مستنقعات الكفر والشرك والضلال ، آذوه فى نفسه وعرضه وماله ، وهو

يحاول جاهداً رفع الأذى عنهم ، أغروا به سفهاءهم ، وهو يحاول درأ السفاهة عن عقولهم ، حاولو جاهدين إطفاء نور الحق الذى جاء به ، وهو يجهد نفسه أن يضيء به قلوبهم ، فعدوا له كل طريق ليصدوا عن سبيل الله وهو ما برح يدعوهم إليه رموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، فلا يزداد مع افترائهم إلا حرصاً عليهم ، ولا يزداد مع قسوتهم إلا رحمة بهم ، ولا يزداد مع جهلهم عليه إلا حلماً عليهم ، ولا يزداد مع نفورهم عنه إلا تودداً لهم وترفقاً بهم ، وكلما دعاهم إلى الله عز وجل أشعلوا عليه حقد قلوبهم ، وشحذوا له صوارم ألسنتهم وأطلقوا أيديهم الآثمة بالإيذاء فرموه بالحجارة حتى أدموه - فداه نفسي - وهو لا يفتر عن الدعاء لهم « **رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون** » (١) .

كان ﷺ مع كل هذا حريصاً عليهم كل الحرص حزيناً على عنادهم أشد الحزن حتى عاتبه الله تبارك وتعالى فيهم بقوله : ﴿ **لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء : ١٠] .

جلست عائشة رضى الله عنها جلسة حب ونسجت خيوط حوار دافئ الحروف شفيق المعنى ودود المرمى تسترجع به مع رسول الله ﷺ مرحلة من مراحل كفاحه المتواصل لتبليغ دعوة الحق إلى الخلق ؛ فسألت رسول الله ﷺ بمشاعر الزوجة الرائعة المحبة التى تود أن تحيى عمر زوجها لحظة لحظة ، وتتجول فى أيامه خطوة خطوة ، وتحتضن مشاعره بوجدانها الفياض ، فتحيى أحزانه التى لم تدركها ، وتسعد لسعادته التى لم تعاصرها ، وتمسح بدفء حنانها بصمات المآسى التى ما ملكت دفعها عن قلبه حيث قالت :

« يا رسول الله ، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ ، **فقال** :

---

(١) مسلم (١٧٩٢)

لقد لقيت من قومك ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى ، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت فإذا فيها جبريل فنادانى ، فقال : إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شيئت فيهم ، قال فنادانى ملك الجبال وسلم عليّ ، ثم قال : يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال وقد بعثنى الله إليك لتأمرنى بأمرك ، فما شيئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال له رسول الله ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئاً »[1] .

إيـه قريـش ... !!

في الحلق منك غصية

والقلب جد مقرح

وإليـــك لا أدرى

على أى المذاهـب أسبـح

أعليـك أم منـك

الفؤاد على البكا لا يبرح .

إيه قريش : أعليك أبكي الإصرار على الكفر والضلال ، والنأى عن طريق الحق والعمى عن نور اليقين ؟! .

---

(١) البخارى ومسلم اللفظ للبخارى ، باب إذا قال أحدكم آمين ، والملائكة أمين فوافقت إحداهما الأخرى » ، كتاب بدء الخلق .

أم منك أبكى الجحود والإساءة ، والصد عن سبيل الله عز وجل ؟ .

أعليك أبكى سفاهة الأحلام ، وجهالة الأنعام ، وكفر الإنعام ؟ .

أم منك أبكى عداءك للدين ، وتعذيب المؤمنين وسحق المستضعفين ؟ .

أعليك أبكى خسران الدنيا والآخرة ؟ . أم منك أبكى إيذاء رسول الله ﷺ ومطاردته والوقوف له بكل سبيل ؟ ، فداه أبى وأمى .

هذه قريش التى اختصتها رحمة الله تبارك وتعالى بما لم تختص به أحد من العالمين ، محمد بن عبد الله ﷺ الممتد النسب فيهم ، الصادق بينهم ، المؤتمن لديهم ، هذا هو ابن عبد الله ﷺ ، جاءهم يحمل بإحدى يديه جنة عرضها السموات والأرض ، ويدرأ بالأخرى عنهم ناراً وقودها الناس والحجارة ، فلا هم تزودوا التقوى سباقاً إلى الجنة ، ولا هم تعافوا الكفر فراراً من النار ، إنما هم السفهاء العميان، تهاووا عناداً واستكباراً فى الجحيم ... ليس وحسب ، وإنما صدوا عن الجنة من يأوى إليها وقعدوا لهم كل طريق ليس هذا وحسب ، وإنما امتدت سفاهتهم بالسوء لمن جاءهم بخيرى الدنيا والآخرة فآذوه وحاصروه وطاردوه ونالوا منه كل جهد حتى ألجأوه ﷺ إلى الطائف فنال منهم ما كان أشد عليه من يوم أُحد . فداه ﷺ كل ما يفتدى به .

وما أدراك يوم ما أُحد ؟ ... يوم خالفه الرماة وانهزمت عنه المحاربة ، وفجع بسبعين من أكرم صحابته على الله وعليه ، وكسرت رباعيته ، ودمى وجهه ، وانكسرت بيضته على رأسه ، فوق كل هذا قُتل حمزة بن عبد المطلب ، وبُقرت بطنه ونُزعت كبده ، ومُثل به أبشع التمثيل !! .

ومن حمزه ؟ إنه أسد الله وعم رسول الله ، وعزة الإسلام ومنعة المسلمين . مصائب بعضها فوق بعض ينوء بها كاهل الجَلد الصبور وتنقطع لها نياط القلوب وتفتت لها الأكباد ، لهذا ظنت عائشة رضى الله عنها أن هذا أقسى ما

مر برسول الله ﷺ من أهوال .

لكن جحود قريش كان أقسى وعنادها وكفرها كان أشد ، وإيذاءها إياه أدهى وأمر ، حتى خرج ﷺ يلتمس النصره والمنعة فى الطائف فما وجد عندهم أفضل مما لدى قريش ، فكان كالذى استجار من الرمضاء بالنار ، وانطلق رسول الله ﷺ مهموم القلب كسير النفس ، مقطوع الرجاء إلا من الله عز وجل .

وما كان الله جل فى علاه ليترك صفية وحبيبه ، فإن تَكُ أحقاد الأرض قد اشتعلت عليه ، فقد أظلته ملائكة السماء ، ولإن صفدت أمامه كل أبواب الأرض ، فها هى لم تغلق قط أبواب السماء ، وإذ بروح القدس أمين السماء عليه السلام يبشر أمين الأرض بمدد السماء - ملك الجبال - وفى أقل من طرفة عين يدكدك الأعناق المتطاوله ويسحق الأنوف المعرضة .

فى الأقل من اللاوقت يطبق الأخشبين وتنتهى المأساة .

يا لنصرة المظلوم وخيبة الظالم ، يال الأخذة العادلة جزاء الظلم والمطاردة والملاحقة بكل أنواع الأذى والعذاب ، يا لعدالة السماء فى المعرضين عن غيث السماء ، يا بشرى مصرعكم أيها الجبابرة الغاشمين القساة .

إنه القصاص العادل ، جزء من لحظة تستريح منكم البلاد والعباد وتسعر بكم الجحيم ، فقط ما شئت من أمر بإذن الله يكون ، ولو أبدى رسول الله ﷺ موافقة لقضى الأمر وخسر هنالك المبطلون .

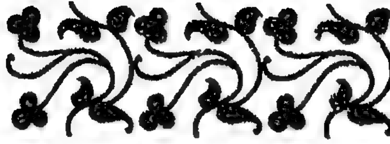
لكنه رسول الله ﷺ ورحمته للعالمين وفيض إحسانه على البشرية جمعاء لم يكن جوابه فى أقسى لحظات حياته المباركة وأشدها إيلاما لقلبه الطاهر وجسده الشريف إلا رحمة بالقوم وأملاً فى ذراريهم - إذ عدم فيهم الخير - .

« بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً » ، أمنية تمناها رسول الله ﷺ بنور النبوة ، فأخرج بها الله تبارك وتعالى

من أبى جهل لعنه الله ، عكرمة بن أبى جهل رضي الله عنه ، ومن الوليد بن المغيرة لعنه الله ، خالد بن الوليد رضي الله عنه ، ومن أمية بن خلف لعنه الله ، صفوان بن أمية رضي الله عنه .

أى رحمة تلك ؟ ، أى إخلاص فى الدعوة هذا ؟ ، أى حرص على إعلاء كلمة الحق ، وأى عزم فى التبليغ ؟ ، أى احتمال للأذى والعذاب ؟ ، وأى صبر على الكفر والعناد ؟ ، أى إنسان يكون ؟ ، إنه رسول الله ﷺ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) ﴾ [الأحزاب : ٥٦] .



المبحث الثانـــى
أطلقوا ثمامـه

الحديث عن قريش حديث ذو شجون ، والحديث عن رحمة رسول الله ﷺ بهم وعفوه عنهم ، وصبره عليهم ، حديث أخاد وجذاب للقلوب والعقول.

ومواقف رسول الله ﷺ فى هذا المضمار ، أكثر من أن يحويها كتاب أو عدة كتب ، ولكن حسبنا وقفة مضيئة أشرف علينا بها أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهـو دائماً مشرق وضيء .

« عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : بعث النبى ﷺ خيلاً قبل نجد فجاءت برجل من بنى حنيفه يقال له ثمامة بن أثال ، فربطوه بسارية من سوارى المسجد ، فخرج إليه النبى ﷺ **فقال : ما عندك يا ثمامة ؟** فقال : عندى خير يا محمد ، إن تقتلنى تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت . فترك حتي كان الغد ثم ، **قال : ما عندك يا ثمامة ؟** قال : ما قلت لك ، إن تنعم تنعم على شاكر ، فتركه حتى كان بعد الغد ، **فقال : ما عندك يا ثمامة ؟** فقال : عندى ما قلت لك ، **فقال : أطلقوا ثمامة** .

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد ، فأغتسل ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، يا محمد ، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك وقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ ، والله ما كان دين أبغض إليّ من دينك ، فأصبح دينك أحب الدين إليّ ، والله ما كان بلد أبغض إليّ من بلدك ، فأصبح بلدك أحب البلاد إليّ ، وإن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة ، فماذا ترى ؟ .

فبشرة رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر ، فلما قدم مكة قال له قائل :

صبوت؟ قال : لا ، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطه حتى يأذن فيهاالنبى ﷺ »[(١)] .

ثم عاد إلى اليمامة فمنع قومه أن يحملوا إلى مكة شيئاً فكتبوا إلى النبى يقولون : إنك تأمر بصلة الرحم ، فكتب لثمامه أن يخلى بين قومه وبين الحمل إلى أهل مكة .

أهذا حلم على حماقة قريش ؟ ، أهذا عفو القادر عند المقدرة ؟ ، أهذا صبر على أذى الأعداء ؟ ، أهذه رحمة بالمشركين الذين آذوا النبى ومن معه ، وأخرجوهم من مكة ؟ إن عمل النبى هنا يجمع هذه الفضائل كلها »[(٢)] .

حيث يطلق أسيره تكرماً وإنعاماً ، ثم يأمره – بعد إسلامه – أن يخلى بين حنطه اليمامة وبين أهل مكة .

إن رسول الله ﷺ لم يأمر ثمامة – بداية – أن يمنع القمح عن مشركى مكة ، لكن إسلام ثمامة هو الذى دفعه إلى معاقبة قريش بما يستطيع أن يعاقبها به جزاءً لها على بغيها ومحاربتها للمسلمين ، وتحريشها الدائم بهم ، وقد كان من حق ثمامة أن يفعل ذلك ، لأن قريشاً مع المسلمين فى حرب متصلة ولأن قريشاً قد استباحت لنفسها من قبل أن تقاطع المسلمين ، وأن تحصرهم فى شعب بنى هاشم بمكة ، وأن تتعاقد على تجويعهم ومقاطعتهم ، وهى لا تزال جادة فى إنزال الأضرار بهم ما وجدت إلى ذلك سبيلاً .

« لكن رحمة النبى ﷺ كانت أعلى من الخصومة ، وأرفع من العداوة ، وأعظم من مقابلة التجويع بمثله ، فإنه لم يكد يقرأ كتاب قريش ، حتى أرسل إلى ثمامة أن يخلى بين قريش وبين حنطه اليمامة ، وهو يعلم أن تجويع قريش

---

(١) البخارى ، باب وفد بنى حنيفة ، كتاب المغازى .
(٢) من أخلاق النبى ﷺ . د / أحمد الحوفى .

يضعفها أشد الضعف ويقيه شرورها » [٢] .

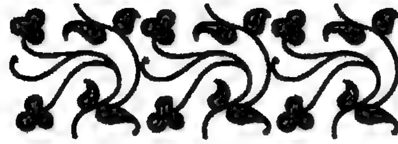
إن رحمة رسول الله ﷺ أبت إلا أن ترحم من صد عن سبيل الله وعذبوا أصحابه ، فجلدوهم وصلبوهم ، وسملوا أعينهم ، وقيدوهم فى صحراء مكة الملتهبة ، جياعاً عطاشاً محترقين ، ومزقوهم كل ممزق .

لا لشيء إلا أن يقولوا ربنا الله .

بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ تناشده الرحم التى طالما وصلها فقطعوها ، وطالما ناشدهم إياها فمزقوها كل ممزق ، لكنه محمد رسول الله ﷺ الذى ما قابل الإساءة يوماً إلا بالإحسان وما قابل الظلم أبداً لها بالعفو والصفح الجميل ، وما قابل القسوة إلا بالرحمة ، ولا الجهالة إلا بالحلم العظيم .

لابدع أن ملك القلوب بلطفه وبماله والعطف والرحمات

وغدت له فى الناس أعظم هيبة ومحبة فاقت عن المهجات



(١) م أخلاق نبى ﷺ أحمد الحوفى

المبحث الثالث
نعم صِلى أمك

لم تك رحمة رسول الله ﷺ بقريش لأنهم قومه وخاصته ، وإنما لأن الرحمة خُلق أصيل فى بنائه الأخلاقى .

كانت رحمته بهم رجاء أن يرحموا هم أنفسهم ، فيثوبوا إلى رشدهم ، ويؤمنوا بربهم أو إن فاتتهم هذه مغساها تدرك من يخرج من أصلابهم ، وهاهى أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها تحدثنا عن رسول الله ﷺ قائلة :

« قدمت على أمى وهى مشركة فى عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت : إن أمى قدمت وهى راغبة أفأصل أمى ؟ ، قال : نعم ، صِلى أمك » (١) .

أسماء ذات النطاقين ، بنت الصديق أبى بكر ، أخت الصديقة عائشة ، زوج الزبير حوارى رسول الله ﷺ ، أم عبد الله بن الزبير أول صبى ولد بعد الهجرة للمسلمين ، المقدام الشجاع العالى فى الحياة وفى الممات .

سمو فى الحياة وفى الممات لعمرك أنت إحدى المعجزات

أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها ماسية الأصل ذهبية الفرع ، المؤمنة الصادقة المؤتمنة على سر الهجرة النبوية المباركة ، وناقلة الزاد للمطاردين إذ هما فى الغار .

أسماء بنت الصديق أمشركة أمها ؟! ، لا عجب فقد حسم الله تبارك وتعالى تلك القضية بقوله لرسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ

---

(١) البخارى ، كتاب الجهاد والسير .

اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ [القصص : ٥٦] ، فما الظن بمن هو دونه ؟ ، ما أقسى ضلال الأحبة على قلب محبيهم ، ما أقسى أن تفتح للأحبة نافذة الحق لتضيء لهم طريق الهداية فإذا بهم قد خمروا عقولهم ، وأطبقوا على الظلمة أجفانهم ، ووضعوا أصابعهم فى أذانهم ، وتواصوا على المكث فى ليل الضلالة وأصروا واستكبروا استكباراً .

ماذا تملك أسماء المؤمنة المهتدية ذات الأيادى البيضاء فى الإسلام لأمها المشركة الضالة المعرضة إلا اعتصار الألم ، وحزن الشفقة ، ودمع الرجاء ، جاءت الأم بجفاف عودها الذى طالما اعتصرته لتروى به عود ابنتها ، جاءت بارتعادات يديها التى طالما أعملتهما فى تربيتها وخدمتها .

جاءتها بذبول عينيها التى طالما أسهرتها على راحتها .

جاءتها بقلبها الذى طالما حملتها فيه ألماً وأملاً .

جاءتها ترجو برها وتؤمل حق الأمومة عليها .

وتلقتها أسماء رضى الله عنها بكل مشاعرة البنوة البارة ، ودت لو احتوتها بين زراعيها وضمتها بقلبها وأذابت بحرارة الشوق برودة الفرقة وجمود المفاصلة ، ازدحمت فى قلب ذات النطاقين مشاعر الشوق والبر والحزن والرجاء والولاء للإسلام والبراء من الشرك والمشركين .

هى أمها نعم ، ولها حق البر نعم ، غير أن هناك من هو أحق بالبر والولاء إنها العقيدة أقرب النسبين والصقهما بالمؤمن الصادق الإيمان ، هرعت أسماء رضى الله عنها تبث رسول الله ﷺ حزنها ، وتصور مشاعرها إلتماساً للخروج من الحيرة « إن أمى قدمت عليّ وهى راغبة ، أفأصل أمى يا رسول الله ؟ ، إنها أمى يا رسول الله ، أمى بكل ما للأمومة من معان وحقوق ، وأنا ابنتها بكل ما فى البنوة من مشاعر وواجبات ، أفأصل أمى ؟ أيسمح لى الإسلام فى صلتها

وبرها وجبر خاطرها ؟ ، أتسمح لى العقيدة بتلك المشاعر الفطرية النبيلة تجاهها ؟ ، أمْ أن شركها حائل بينى وبينها ؟ .

يا لروعة المؤمن الوقّاف على حدود الله ؟ الوقّاف على حدود الشرع وإن كانت ضد رغباته ومخالفة لهواه ، لم تقدم أسماء رضى الله عنها على صلة أمها إلا أن يأذن رسول الله ﷺ ، وهنا جاءت المشاعر المحمدية ، الرحمة الفياضة تحفظ للمشاعر الإنسانية حقها ، وتحفظ للعلائق الأسرية ترابطها وقوتها .

قال نعم ، صِلى أمك ، صِلى أمك ، لأن الإسلام يحفظ لكل ذى حق حقه حتى وإن كان صاحب الحق مشرك ، حتى وإن جاهدك على الشرك كيف لا وهذه هى أخلاق الإسلام ، ووصية القرآن ، ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾[لقمان : ١٥] .

نعم صِلى أمك يا ابنة الصديق ، ما أرحم الإسلام ، ما أرحم نبى الإسلام ﷺ .

المبحث الرابع
الحمد لله الذى أنقذه من النار

كان رسول الله ﷺ أحرص الناس على حياة البشرية جمعاء ، وأشفقهم عليها من سخط الله وويلات سوء العاقبة ، عمل جاهداً على استنقاذ البشرية من براثين الكفر والضياع ، ولم يكن الخدم بمنأ عن هذا الحرص وتلك الشفقة ، إذ أنهم بشر ممن خلق الله سبحانه وتعالى ، لم يخرجهم من إنسانيتهم قلة المال أو الجاه ، ولم يرفع عنهم التكليف أنهم خدم إنما لهم حق الدعوة إلى الخير والأخذ بأيديهم إلى طريق النور ، وبين أيدينا الآن رائعة من روائع أنس رضي الله عنه تلقى الضوء على دعوة رسول الله ﷺ للخدم ، ورحمته بهم وحرصه على استنقاذهم من النار .

عن أنس رضي الله عنه قال : كان غلام يهودى يخدم النبى ﷺ فمرض فأتاه النبى ﷺ يعوده ، فقعد عند رأسه فقال له : أسلم ، فنظر الغلام إلى أبيه وهو عنده ، فقال له : أطع أبا القاسم ، فأسلم ، فخرج النبى ﷺ وهو يقول : « **الحمد لله الذى أنقذه من النار** » (١) .

افتقد رسول الله ﷺ الغلام اليهودى ، ليست بالرجل الكامل ، وليس بالسيد المُهاب ، وليس بالمسلم الموحد . غلام يهودى خادم ، ماذا يمكن أن يكون له من حق على سيده ؟ ، فمع عظم مسئوليات رسول الله ﷺ وثقل الأعباء الملقاة على عاتقه كان من الطبيعى ألا يفتقد مثل هذا الغلام ، أما إن افتقده وعلم بمرضه فجميل منه ﷺ أن يرسل من يعوده أو يواسيه فى مرضه .

---

(١) البخارى ، إذا أسلم الصبى فمات هل يصلى عليه وهل يعرض الصبى للإسلام ، كتاب الكسوف .

نعم إن هذا المريض غلام ، وخادم ، ويهودى ، ولكن من سيده ؟ ، إنه رسول الله ﷺ ، القلب الذى حمل بين حناياه البشرية جميعها بآلامها وآمالها وجموحها وجهلها ، محاولاً السير بها على طريق الرشاد ، ولهذا فإن له من السمو والتواضع ونبل الغاية ، وفيض الرحمة ما يجعله مسارعاً فى عيادة هذا الغلام مخففاً عنه آلام المرض ومحاولاً استنقاذه من آلام أشد وأدوم ، أتاه النبى ﷺ فقعد عند رأسه ، جلس منه جلسة رحمة وشفقة ، جلسة أب حان عصوف ، بعيد النظر يشفق على ابنه من المرض أو الموت ، لكن إشفاقه عليه مما هو بعدُ الموت أعظم وأشد ، حيث إنه الخلود الأبدى ، فإما محسن منَعَّم ، وإما مسىء يوقد به الجحيم .

لهذا دعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام ، أسلم أيها الغلام ، انطق شهادة الحق ، أنافح بها عنك يوم الدين ، انطقها فإنها مخرجك من الظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، ومن غضب الرب إلى نعيم الرضوان .

وتُحرِّك تلك الرحمة البالغة ، الفطرة الكامنة فى الغلام إلى دين الله ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم : ٣] .

نعم ، تحركت الفطرة التى طمستها نشأته اليهودية ، ووالده الذى هوده وأضله ، فعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كل إنسان تلده أمه على الفطرة وأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ... » [(١)] .

وينظر الولد إلى أبيه نظرة من يودّ الخلاص ، لكنه يخشى سطوة جبار عنيد ويقرأ الرجل تلك النظرة المستعطفة الخائفة ، ولم يكن بإمكانه إزاء هذه النظرة

---

(١) مسلم (٤٦٠)

أن يخادع نفسه أكثر من هذا ، وهو يعرف رسول الله ﷺ كما يعرف ابنه هذا ، ويدرك تمام الإدراك إنه رسول الله ﷺ الذى يقرأ صفاته فى التوراة ليل نهار كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) ﴾ [البقرة : ١٤٦] .

ولم يكن بإمكان الرجل وهو يرى رحمة رسول الله ﷺ بابنه ، أن يقسو هو عليه فى آلام مرضه ، لا مناص من أن يصدق الرجل مع نفسه ، ومع ابنه المريض فى تلك اللحظة الحرجة ، وانتصرت أبوّة الرجل على يهوديته ، فقال لابنه : أطع أبا القاسم ، لحظة أبوة صادقة ، ارتفعت بالرجل عن حقده على الإسلام وعداوته للمسلمين ، وحسده لنبى الإسلام .

انتصر على عناده مع نفسه ، وكفره بالحق المبين ، انتصر الرجل على جحود الحق وكتمان العلم بماذا ؟ ، بما رآه من رحمة رسول الله ﷺ بالغلام - وهو خادمه - فلا أقل من أن يحيى هو لحظة صدق يرحم بها فلذة كبده .

أسلم الغلام ، إتبع الحق الذى طالما صده عنه ذووه ، واستضاء بنور الإيمان الذى طالما حجبوه عن قلبه الغض النضير .

الحمد لله الذى أنقذه من النار ، تحميدةٌ فاض بها قلب رسول الله ﷺ ولهج بها لسانه ، فليبرأ الغلام إذاً أو فليمت ، فقد كان ميتاً فأحياه رسول الله ﷺ بالإسلام ، حياة أبدية السعادة ، خالدة النعيم .

أحياه بالتواضع والبذل لأجل الدعوة ، أحياه بفيض رحمته ﷺ فكان كما وصفه شوقى رحمه الله :

أخوك عيسى دعى ميتاً فقام له ... وأنت أحييت أجيالاً من الرمم

والجهل موت فإن أوتيت معجزة ... فابعث من الجهل أو فابعث من الفدم

المبحث الخامس
وألبســه قميصه

إن رسول الله ﷺ وهو يرحم المؤنين الأتقياء ، فإنه يرحم من هم حقيق بهم الرحمة ، ذلك أن الوشيجة التي تربط المجتمع المؤمن هي وشيجة الرحمة ، ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ [الفتح : ٢٩] .

ورحمته ﷺ بالعصاة رحمة الطبيب الحاذق بمرضاه الذين يعرف فيهم مواطن الداء فيتتبعهم بما يصلحهم من دواء .

أما رحمته ﷺ بغير المسلمين ، فهي رحمة الراعي الأمين حين يجهد نفسه في استنقاذ القطيع الشارد ، إذا احتوشته الذئاب فيستنقذ الله به منهم من فيه خير للإسلام والمسلمين ، غير أن هناك صنف من البشر لا هم عن المؤمنين فتحق لهم الرحمة ولا هم من العصاة فتجمل بهم الرحمة ، ولا هم من الشاردين الذين ربما استنقذتهم الرحمة، إنما هم صنف خارج دائرة الإنسانية ، ملامحهم ملامح بني الإنسان ، ومنطقهم منطق بني الإنسان ، يندسون بين الناس كأنهم من بني جلدتهم ، غير أن قلوبهم مسخت قلوب شياطين وعقولهم قد أُنبتت في مزرعة إبليس اللعين ، ذلكم هم المنافقون .

أشد أنواع المناهضين للحق خطراً على الإسلام والمسلمين ، إذ أن حربهم غير معلنة إنما هم يتسمّون بأسماء المسلمين ويتكلمون بلسانهم ، يتظاهرون بالود والولاء لهم ، فلا يأبه لخطرهم أحد ، ولا يحطاط منهم عامة المسلمين ، فإذا هم سرطان في جسم الأمة ، لا يدرك خطره إلا إذا هتك وفتك ، ولا يتدارك أمره إذ بداية ظهوره هي النهاية المأساوية ، ولهذا فقد أطلع الله سبحانه

وتعالى رسوله ﷺ على المنافقين الذين اندسوا بين صفوف المسلمين ، ليكونوا الحرب الداخلية الفاتكة حيث يشتتوا قوى المسلمين ويعملوا فكرهم الخبيث فى فصم عرى الترابط بينهم ، بإلقاء الشبهات المريبة فى طريقهم والشكوك الباطلة فى قلوبهم ، ويكونوا الحرب الخارجية الدنسة ، بإذاعة أخبار المسلمين ، وتعرية ثغورهم وإعانة عدوهم عليهم .

من هذا الصنف البشع الخبيث عبد الله بن أبى بن سلول ، رأس النفاق وزعيم المنافقين - عليه من الله ما يستحق - ، أظهر الإسلام وأضمر الحقد والحسد والبغضاء للإسلام ، ولنبى الإسلام ولعامة المسلمين ، فلم يترك فرصة دنيئة يمكنه بها إيذاء الإسلام دعوةً ونبياً وأتباعاً إلا استغلها أبشع استغلال ، والعجب كل العجب أن نرى رسول الله ﷺ يترفق به المرة تلو المرة ويحلم عليه المرة تلو المرة ويعفو عنه المرة تلو المرة ، فكانت حياته كلها إساءة للإسلام من قبله وعفواً له من قبل نبى الإسلام ﷺ حتى أنه قد نال من الإسلام ومن رسول الله ﷺ ما لم ينله أعداء الإسلام مجتمعين ورسول الله يصفح ويعفو حتى قضى عدو الله وأفضى إلى ما قدم أما الأعجب أن يستمر رسول الله ﷺ على تلك الرحمة به بعد موته ، وهاكم الصورة العجيبة التى نقلها لنا جابر بن عبد الله رضى الله عنهما حيث قال : « **وأتى النبى ﷺ عبد الله بن أبى بعد ما أدخل قبره فأمر به فأخرج ووضع على ركبتيه ، ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه والله أعلم** » [(١)] .

لو لم تكن للمنافقين وصمة على مر التاريخ إلا عبد الله بن أُبى بن سلول لكفتهم إلى أبد الدهر ، ذلك الأفعى الخبيث الذى ينفث سمومه القاتلة بين المسلمين كلما وجد إلى ذلك سبيلاً .

---

(١) صحيح البخارى ، باب لبس القميص ، كتاب اللباس .

ذلك الشيطان الذى ظل يوسوس فى الصدور ويلعب بالعقول ، ويؤلب على المسلمين حتى آخر لحظات حياته القذره ، بل أوصى بها ورثته فلا يزالون مستمسكين بميراثه العفن حتى اليوم ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فلو جملت الرحمة بكل كفرة الأرض ورعديديها ، ما جملت بهذا الشيطان اللعين ، الذى ناصب رسول الله ﷺ العداء من أول لحظة شرفت به المدينة المنورة ، ومع هذا نرى رسول الله ﷺ يأتى قبره ويأمر به فيخرج ثم يضعه على ركبتيه الشريفتين ويا نعم الواضع ويا بئس الموضوع .

أنّى لهذا الرجس بتلك المكانة الرفيعة ؟! ، ثم ينفث ﷺ من ريقه الطاهر عليه ، ثم يلبسه قميصه الشريف ، أهذه رحمته ؟ إنما هى رحمات مضيئات ، يتلألأ بعضها فى بعض ، كان لتلك الصورة الرائعة بداية لا تقل عنها رفعة وجلالاً حيث ذكر الإمام الحافظ ابن كثير – رحمه الله – ما رواه الإمام أحمد والإمام الترمذى والإمام البخارى – رحمهم الله – باختلاف يسير فى ألفاظ الروايات ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

« لما توفى عبد الله بن أُبى دعى رسول الله ﷺ للصلاة عليه فقام إليه ، فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولت حتى قمت فى صدره ، فقلت : يارسول الله أعلى عدو الله عبد الله بن أُبى القائل يوم كذا كذا وكذا ، « بعد أيامه » قال : ورسول الله ﷺ يتبسم حتى إذا أكثرت عليه قال : « **أخر عنى يا عمر ، إنى خيرت فاخترت ، وقد قيل لى** ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٨٠] ، **ولو أعلم أنى لو زدت على السبّعين مرة غفر له لزدت** » ، **قال : ثم صلى ومشى معه وقام على قبره حتى فرغ منه** » .

وفى البخارى : وقال :-أخر عنى يا عمر ، فلما أكثرت عليه قال : إنى خيرت فاخترت ، ولو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها ، قال : فصلى عليه ، فما لبث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ﴾[التوبة : ٨٤] [١] .

ويريد رسول الله ﷺ بقوله إنى خيرت آية التوبة ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) ﴾ [التوبة : ٨٠] .

بل إن رسول الله ﷺ هو أكثر من آذاه ابن سلول ونال من نفسه ، وعرضه نيلاً مغرضاً خبيثاً ، ومع هذا يغفر ويصفح ، بل ويرحم ويحسن إليه فى حياته ، وحتى بعد أن أفضى إلى ما قدم ، يصلى عليه رغم اعتراض سيدنا عمر رضي الله عنه وتذكيره لرسول الله ﷺ بأيادى ابن سلول السوداء عليه وعلى الإسلام والمسلمين ، وليست الصلاة فقط بل يجلسه على ركبتيه الشريفتين ويلبسه قميصه الطاهر المبارك ويستغفر له ، ويود لو غفر له الله ، مراعاة لشهادة التوحيد التى نطقها يوماً بلسانه أملاً فى أن تكون قد لامست ولو مرة قلبه الدنس ... ربما ! .

ربما مراعاة لحق الصحبة التى لم يرعها ابن سلول يوماً ما ، ربما شفقة على هذا الشقى من مصيره التعس ، أو أنها رحمة بعبد الله بن عبد الله بن أُبى ابن سلول رضي الله عنه ، ذلك المؤمن الصادق المجاهد ، البرئ من نفاق أبيه ، وحربه القذرة ضد الإسلام والمسلمين ، وسبحان مخرج الحى من الميت .

ربما لأسباب فوق إدراكنا ، ففعل رسول الله ﷺ كله واسع المعنى عميق المغزى ممتد الحكمة يجد فيه كل مستزيد بغيته وزيادة .

---

(١) البداية والنهاية .

الفصل السابع
رحمته ﷺ بالحيوانات

المبحث الأول : حبستها حتى ماتت .
المبحث الثاني : من فجع هذه بولدها ؟ .
المبحث الثالث : فغفر لها بذلك .
المبحث الرابع : فشكر الله له فغفر له .

المبحث الأول
حبستهـا حتـى مـاتت !!

أن يتراحم الناس فيما بينهم فتلك أخلاق إسلامية راقية لائقة بمجتمع مسلم ، أما أن تتعدى رحمة الإنسان إلى غيره من المخلوقات ، فتلك ذروة ما تصل إليه الأحاسيس البشرية من سمو وارتقاء ، ولهذا كان حرص رسول الله ﷺ على السمو بالمجتمع المؤمن إلى تلك المكانة الرائعة ، حيث لا يقتصر على التراحم فيما بينهم فحسب ، إنما يغرس فى قلبه الرحمة والشفقة على كل ما حوله من مخلوقات الله ، حتى يبدو وكأنه الرحمة قد صيغت بشراً سوياً ، ذلك أن الإنسان كلما ازداد إيماناً فاض قلبه رحمة وشفقه وتفاعل مع الكون كله بكل حب وشفقة .

وهدى رسول الله ﷺ فى هذا المقام مشكاة يرتوى منها الرحماء ، ويذيب فيها القساة قسوة قلوبهم – إن كانت قابلة للذوبان – وفيض عطر من تلك المشكاة الخالدة خلود الإسلام وتعاليم رسول الله ﷺ تكشف لنا حقيقة رحمته ﷺ بما دون الإنسان ، خاصة الحيوانات على اختلاف أجناسها ، ذلك أنها مخلوقات ضعيفة ، تجمل بها الرحمة والرفق .

« عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « **عذبت امرأة فى هرة حبستها حتى ماتت جوعاً فدخلت فيها النار** » [1] .

يالك من امرأة صخرية القلب فولازيه الأحاسيس عدوانية المشاعر ، شذت المرأة عن الطبيعة الأنثوية برقتها وحنانها وسرعة تأثرها بالمواقف ، خالفت ما فطر

---

(١) البخارى ، باب فضل سقى الماء ، كتاب المساقاة

الله سبحانه وتعالى عليه بنات جنسها ، من توقد العاطفة ، وتدفق الحنان ، ووفرة الرحمة ، فحبست حيواناً ضعيفاً أليفاً لا حول له ولا قوة ، قطة لا قدرة لها على التعبير اللفظى عن مدى جوعها وألمها ومرارة الظلم الواقع عليها ، غير أن صراخها الأعجمى الأبكم المستغيث ، كان كفيلاً بتفتيت القلوب الحجرية ، وتفجير ينبوع من الرحمة ، ليذيب فيه بشاعة القسوة والجبروت ، لكن قلب المرأة كان أجلد من أن يتصدع ، وأقصى من أن تدانيه الرحمة ، وحش شرس فى صورة امرأة آدمية حبست القطة الضعيفة فى جوعها وضعفها وألمها وجفاف حلقها .

استعطفتها القطة البائسة بكل وسائل الاستعطاف دون جدوى ، بكت بلغة كادت تنطق من هول المأساة دون جدوى ! ، أطلقت صرخات الإحتجاج والثورة العارمة دون جدوى !! ، وهن الصراخ الجائع المحموم دون جدوى ، خفتت الاستغاثات شيئاً فشيئاً حتى كان الموت أرحم بالقطة من القلب الفولازى المريض الملتذ بعذاب الآخرين .

أنهت المرأة اللا إنسانه حياة القطة الضعيفة المسكينة بتلك البشاعة المروعة فكانت سفيرها غير الميمون إلى النار والعذاب المهين، والجزاء من جنس العمل، فمن لا يرحم لا يُرحم ، إنه عدل الله تعالى مع قساة القلوب ، وهكذا اقتضى ميزان العدل الإلهى أن تُحرم تلك المرأة القاسية الرحمة فى الآخرة ، وهى الضعيفة الذليلة ، كما حرمتها حيوان ضعيف لا حول له ولا فكاك من قسوتها فى الدنيا ، فالذى لا يرحم الحيوان أجدر ألا يرحم أحداً من بنى جنسه ، بل ربما تمتد القسوة إلى الأقربين من أب أو أم أو ابن أو زوج ، يا لها من موعظة بليغة ووصية رفيقة ، لو وعاها الإنسان لكان ينبوع رحمة وفيض حنان لمن ؟ ، لكل مخلوقات الله حتى الحيوانات ...

المبحث الثانى
من فجــع هــذه بولدهــا ؟

وها هو ابن مسـعـود رَضِيَ الله عنه يقـول : « كنا مع رسـول الله ﷺ فى سفـر ، فانطلق لحاجته ، فرأينا حمرة معها فرخان ، فأخذنا فرخيها فجاءت الحمرة (وهى طائر صغير كالعصفور) تعرش (أى تظل بجناحيها على من تحتها) فجاء النبى ﷺ فقال : « **من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليـها** » ، ورأى قرية نمل حرقناها ، فقال : « **من حرق هذه ؟** » قلنا : نحن ، قال : « **إنه لا ينبغى أن يعذب بالنار إلا رب النار** » [(١)] .

من فجع تلك بولدها ؟ .

يرق قلب رسول الله ﷺ لأنثى طائر إذ أخذ منها صغارها ، ويأمر صحابته الكرام أن يردوا عليها صغارها ، رحمة بمشاعر الأمومة لديها ، وشفقة أن يعصف بها ألم الثكل ومرارته ، ورحمة لضعف صغارها ، وحاجتهم لحضن الأم ، وشفقة أن يعصب بهم إحساس اليتم والضياع .

وهم ماذا ؟ طيور ، قد لا يفطن بعض الفطناء أن لهم مشاعر وأحاسيس ، ثم يألم لسرب من النمل قد أحرقه أصحابه رضى الله عنهم ؟ ، ربما لأنه قد آذاهم فى أنفسهم أو أمتعتهم ، لكنه يأبى ﷺ أن يعذب بالنار إلا رب النار ، حتى وإن كان سرب من النمل ، سرب من الحشرات !! .

صلى الله وسلم وبارك عليك يا من رحمت حمرة فجعت بولدها ؟ أو سرب من النمل قد أحرق ! ، فماذا لو رأيت ما نحن فيه من فجيعة الأمهات

---

(١) رواه أبو داود بإسناد صحيح (رياض الصالحين برقم ١٦١٧) .

بأطفالهن صباح مساء .

أطفال قد شيب نواصيهم ظلم العدو وتبجحه ، وتنصل الصديق وسلبيّته . حتى صرخت الآلام فى قلبه المعنىّ علّها تُسمع من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد فطفقت تقول :

قطعت الليل ترحالا وكل الناس يقصينى
فلا أذن تضيفنى ولا ذو القلب يأوينى
لقد مُزّقت أشلاء فمن منكم يداوينى
ومن للأقصى يشريه ويشرى القدس يشرينى
ومن للشيخ إذ غطى لحاهم أعفن الطين
إذا ما العرض منتهك ودم الحر يكوينى
فمن للطفل ذى الأحجار من للأرض والدين
ألا فلتتركوا الأحلام يا قومى ... أجيبونى
وما من مجيب !!

تتألم يارسول الله من أجل طائر وحشره ، فكيف لو ترى مأساة الإنسانية ؟ كيف بك لو رأيت يد الصهيونية - التى لم تلامس قلبها يوماً رحمة أو فضيلة - تخرق قرى البشر لا قرى النمل ، وتحصد الشعب الأعزل حتى الأطفال الدين كتب عليهم أن يقفوا مواقف أعظم الرجال فى مرحلة من عمرهم يلعب رفقاءهم فيها باللُّعب ، ويبنون على الشواطئ قصور من الرمال ، أطفال تحصدهم يد الغدر والوحشية الآثمة من بين ضلوع الأمهات وأحضان الآباء ، أطفال برءاء يدفعون حياتهم ثمناً لدفاعهم الشرعى عن حقهم فى الحياة ! ، أو تمماً لإشباع شهوة القتل والتدمير فى قلب نازية القرن الواحد والعشرين ، فإلى الله المشتكى وبه الاستعانة والإستغاثة .

المبحث الثالث
فغفـــر لهـا بـذلك

ولإن وجد فى النساء من كان قلبها بتلك الصلادة والغلظة ، فقتلت قطة ضعيفة شر قتله بتلك القسوة والوحشية ، إذ مزقتها بخنجر الجوع ، فإن منهن من أنقذت كلباً ببلسم الرحمة وعبير الشفقة إذ أمدّته بماء الحياة .

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **غُفِر لإمرأة مومسة مرت بكلب على رأس ركى يلهث ، قال : كاد يقتله العطش فنزعت خفها فأوثقته بخمارها فنزعت له من الماء ، فغُفِر لها بذلك** » [1] .

امرأة متدنية ساقطة عن إنسانيتها ، متجردة من أخص خصائص النساء ، ألا وهى العفة والطهر والفضيلة ، فما عسى الخير الذى يرجى منها ؟ ، أيمكن لهذه أن يكون فيها بقية من خير ؟! ، أيمكن لهذه أن يكون بداخلها بقايا إنسان ؟! .

سبحان الله ، إن بذلك القلب الجامح عن طريق الإستقامة السادر فى غيه بقية من رحمة وإن توارت خلف جدران الرزيلة إلا أن صعوبة الموقف استدعتها فخرجت كالسهم المارق مخترقة تلك الحواجز العفنة المتراكمة وأنقذت الكلب من الهلكة .

نعم رأت المرأة ذلك الكلب الذى هو على حيوانيته أطهر من كل الكلاب البشرية التى ترتع فى الجيف الفكرية ، والرزائل الأخلاقية ، والجرائم الوحشية ، إذ أن نجس الكلب يطهره تراب الأرض ، أما نجس الرزائل البشرية فإنه يدنس

---

(١) البخارى ، باب إذا وقع الذباب فى شراب أحدكم فليغمسه ، فإن فى إحدى جناحيه الداء وفى الأخرى شفاء ، كتاب بدء الخلق .

الأرض ، فيحطم الآمال وييتم الأطفال ، وينتهك الأعراض
ويبيد العزل الضعفاء ، ويفسد كل شيء حتى تراب الأرض.

رأت المرأة ذلك الكلب على صورة رهيبة بكى لها قلبها على انحطاطه ودناءة وجهته ، إذ رأته يلهث يكاد يقتله العطش ، فنزعت خفتها فأوثقته بخمارها ، يا الله ! مومس غير أن رزيلتها لم تقو على انتزاع خمارها ، إن رزيلة بائعات الهوى يصل أذاها إلى من قصدها أو سعى إليها ، أما رزيلة السفور فإنها تؤذى من أراد ومن لم يرد ، مومس لم تخلع خمارها إلا ليكون وسيلة تنقذ بها حياة حيوان أعجم ! ، لا يملك لعطشه إلا اللهاث والإستسلام لقسوته حتى يريحه الموت من ذلك الألم البشع ، أو يجعل الله له فرجاً ومخرجاً ، فما بال الشريفات الحسيبات العفيفات ، يلقين بخمرهن غير آبهات بسوء الصنيع ، فيفسدن الأمة ، ويفتكن بالقلوب الضعيفة العطشى ، التى يزداد لهاثها ومرضها وفتنتها بسبب العرى والسفور .

نزعت المرأة خفها ، وأوثقته بخمارها ، فنزعت من الماء للكلب ، ما أطفات به جحيم عطشه ، فنبتت فيه الحياة من جديد ، وكأن الماء إذ أنبت فى الكلب نبض الحياة التى جفّ من لحظات أو كاد ، أنبت فى قلب المرأة الفضيلة ، وغسل عنها أدران الرزيلة وأوحال السقوط والإنحطاط .

رأى الله سبحانه وتعالى صنيع المرأة التى فاض رحمة بالكلب الضعيف فكان أرحم بها وأرأف بحالها فسقاها من أنهار الجنة إذ أورثها السعادة الأبدية هنيئاً لتلك المرأة جميل صنعها ، هنيئاً لها رحمة ربها ، هنيئاً لها المغفرة ، هنيئاً لها الجنة .

المبحث الرابع
فشكر الله لـه فغفـر لـه

لم يأل رسول الله ﷺ جهداً فى النصح للأمة ، وفى إيقاظ الخير فى جنبات قلبها ، والرفيف بمشاعرها فى أوسع مدى وأعلى نطاق للأخلاق الفاضلة .

كان رسول الله ﷺ يحض الأمة على التراحم فيما بينها ، وعلى الرحمة لكل ما يحيط بها ، ظل يضرب للناس الأمثال تلو الأمثال ليقرب إلى أذهانهم الصورة التى يجب أن يكون عليها المؤمن الحق .

كان يقص القصص من أخبار الأمم الغابرة كوسيلة إيجابية لتربية النفس ، وغرس القيم النبيلة فيها بطريقة أليق بذكاء المؤمن الفطن وأعمق أثراً فى نفسه وأدوم إعمالاً لعقله .

وبتلك الوسائل الرائعة ظل يغرس فى أصحابه وفى الأمة من بعدهم مكارم الأخلاق وعلو الهمم وسمو الغايات ، شذاً ندىٌ لقصة رائعة أخرى من قصص رسول الله ﷺ التربوية الرفيعة الباقية الأثر إلى يوم القيامة ، تدعو إلى الرفق بالحيوان شيقه السرد نفيسة القيمة ، سريعة التأثير عميقة الأثر تؤتى ثمارها بإذن ربها فى القلوب الحية الخصيبة .

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : « **بينا رجل بطريقة إشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج ، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل : لقد بلغ من هذا الكلب من العطش مثل الذى بلغ منى فنزل البئر فملأ خفه ماء فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له** ، قالوا يارسول الله : وإن لنا فى البهائم أجراً ، **فقال : فى كل ذات كبد**

رطبة أجراً »[1] .

يا لجلال الصور وروعتها ، رجل بطريق اشتد عليه العطش ، ما أشد قسوة العطش حين افتقاد الماء ، وما أشد قسوة الطريق حين افتقاد الرفيق والأسوأ من هذا إذا اجتمعت شدة العطش ومشقة السفر وإحساس الغربة وافتقاد الرفقة ، اشتد العطش على الرجل بكل معانيه ، بجفاف الحلق وبلوغ الجهد وارتعاد القلب ارتعادة من يرى شبح الموت دون بلوغ القصد وشوقه إلى الأهل والولد شوقه إلى سر الحياة المفتقد فى صحراء الموت .

قاسى الرجل هول الموقف وشدة الصراع بين حب الحياة وخوف الموت وفى ذلك الوقت العصيب ترقرق ينبوع الرحمة من قلب طريق الموت ، فإذا به نبع الحياة للقلب الظامئ والحلق الجاف والخلايا الذابلة ، رحمة الله الغامرة حين تنقطع الأسباب ولا تنفع الحيل ويلوذ الإنسان من عجزه وضعفه بحول الله وقوته ، وجد الرجل بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فلا يزداد به إلا عطشاً وجفافاً ، فقال الرجل : لقد بلغ من هذا الكلب من العطش مثل الذى بلغ منى .

ما أروع المواقف الصعبة المريرة إذا أكسبت الإنسان الإحساس بكل شيء حوله إذ حين يحياها بمعاناتها وآلامها تجعله من الرقه والإيجابية بحيث يستشعر مآسى الآخرين من نبراتهم ويقرؤها على صفحات وجوههم فيحاول تخفيفها عنهم بقدر المستطاع ، ولهذا كانت روعة حكمة الصيام فى تربية النفوس والقلوب ، وترويض الطباع المستأسدة فى الإنسان ، وتهذيب الرغبات إذ جوعك وأنت صائم يربى فيك الإحساس بآلام الجوعى ومعاناة المحرومين ، وعطشك

---

(١) البخارى ، باب رحمة الناس والبهائم ، كتاب الأدب .

وأنت صائم يربى فيك الإحساس بالعطشى بأى أنواع العطش مادى كان أو معنوى ، يا لها من تربية إيمانية رائعة لمن وقف على حقيقتها ووعى معانيها .

الرجل منذ قليل كان يعانى قسوة العطش ومرارة الإحساس به لولا أن تداركته رحمة ربه تبارك وتعالى فإذا به يحس نفس المعاناة فى ماذا ؟ كلب ! ، ولم لا وهو حيوان يشترك مع الإنسان فى مطالبه البيولوچية ويسعى للحصول عليها ويألم لنقصها ويفقد الحياة أو يكاد لفقدها ، ولم يملك رجل ربته مرارة التجربة إلا أن ينزل البئر ويملأ خفه فيسقى الكلب رحمة من مخلوق استوجبت رحمة الخالق سبحانه وتعالى .

ما أقل العمل على عِظَمِ معانيه ، وما أعظم الجزاء إذ المجازى هو الله تبارك وتعالى ، دهش الصحابة الكرام من عظم أجر الرجل ، فاستدعت دهشتهم سؤالاً كان لابد أن يثمره ذلك الموقف الجليل فقالوا : يارسول الله ، وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ ، فقال : فى كل ذات كبد رطبة أجر .

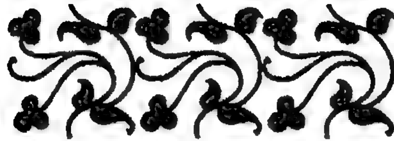
بل إن رحمته ﷺ قد احتضنت الحيوان حتى وهو يُذبح حيث قال : « **إن الله كتب الإحسان على كل شىء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتْلة ، إذا ذبحتم فأحسنوا الذبحه وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته** »[(١)] ، وكذلك أوصى ألا تُذبح شاه أمام شاه أخرى حتى لايتملكها الرعب ، فياحسرتاه كم من السنن صيعت فكان نتيجة ذلك الشقاء الذى عم بإحلال البدع المقيته بدل السُّنن المعطلة .

إن الإنسان الرحيم لا تقتصر رحمته على بنى الإنسان فقط ، ولا على البهائم وحسب إنما تشمل كل ذات كبد رطبة تحقيقاً لمعنى الإنسانية ودورها

---

(١) رواه مسلم .

فى الأرض ، وابتغاءً للأجر والمثوبة من الله تبارك وتعالى ، إنها الرحمة فى أنقى صورها ، وفى أوسع مداها ، وأروع معانيها ، غرسها نبى الرحمة ﷺ فى القلوب الحية الخصيبة ، فأنبتت حياة رائعة ليست حكراً على الصحابة رضى الله عنهم ، وإنما ستظل تنبت فى كل قلب حى خصيب إلى أن يرث الأرض ومن عليها .



الفصل الثامن
رحمته ﷺ بالجماد

المبحث الأول : فجعلت تئن أنين الصبى .

المبحث الثانى : هذا جبل يحبنا ونحبه .

المبحث الأول
فجعلت تئن أنين الصبى

رحمةٌ بالجمادات ! لماذا ؟ وكيف ؟ .

ما أعظم رحمة رسول الله ﷺ وهو يحث على رحمة كل ذات كبد رطبة لما لها من حق الحياة التى منحه الله سبحانه وتعالى إياها ، وما أروع رحمته ﷺ وهو يوصى بعدم قطع الشجر ، بل ويبشر زارعه ومتعهده بالسقيا والرعاية ، حيث جعل الله سبحانه وتعالى فيه منافع للناس إذ يمنحهم الظل والثمر والعبير والجمال والصحة بتجديد الهواء وتخفيف حدة الملوثات ، لهذا ولغير هذا الكثير مما يعود على الإنسان بالمنفعة كان لتلك المخلوقات حق الرعاية والبقاء غير أن أعظم الأسباب الدافعة إلى هذا التعهد وتلك الرعاية أن هذا الشجر مخلوق وهبه الله القادر حق الحياة ، فلا ينبغى لنا ونحن مثله مخلوقات الله أن نسلبه هذه الحياة ، بل نحيطه بالرعاية ونتعهده بالرحمة . .

أما إذا أصبحت الشجرة جذعاً يابساً لا ظل ولا ثمر له ولا حياة ، فما عسى أن يكون له من حق علينا ؟ ، وهل يمكن أن يكون لذلك الجزع مشاعر وأحاسيس وردود أفعال ؟ وإن وجدت فهل له قدرة على التعبير عن تلك الأحاسيس وإبداء الرضى أو السخط أو الاحتجاج ؟ ..

أسئله ربما يدخلها البعض تحت طائلة الهراء الذى لا معنى له ولا قيمة ، ويحكم عليها العقلاء بأنها أسئلة ربما لها إجابات لم يكتشفها العلم بعد ، وربما اكتشفت يوماً ما ، أما الباحث الغواص فى بحر السُنة المطهرة ، يجد الجواب فى أحاديث كثيرة للمصطفى العظيم ﷺ ، ومعنا منها لؤلؤة رائعة أهدانا إياها جابر بن عبد الله رضى الله عنهما تحكى روائع البيان ، وتنشر عبيرها

على القلوب ، ونغمها على الآذان .

« عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن امرأة من الأنصار قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، ألا أجعل لك شيئاً تقعد عليه ؟ فإن لى غلاماً نجاراً قال : إن شئت ، فعملت له المنبر ، فلما كان يوم الجمعة قعد النبى ﷺ على المنبر الذى صنع ، فصاحت النخلة التى كان يخطب عندها حتى كادت أن تنشق فنزل النبى ﷺ حتى أخذها وضمها إليه فجعلت تئن أنين الصبى الذى يسكن حتى استقرت »[1] .

سبحان من له الإبداع المطلق .. سبحان من له العلم المطلق .. سبحان من له القدرة المطلقة ، جذع نخلة يابس لا نضارة فيه ولا حياة ، حباه الله تباركت آياته خلوداً حيا فى قلوب الأمة على مر العصور والأزمان ، لشرافته برسول الله ﷺ – وهو خشب يابس – فما الظن بالصحابة الكرام الأطهار – عليهم من الله الرضا والرضوان – ، جزع نخله اتخذه رسول الله ﷺ فى مسجده المبارك ، ليبلغ للأمة من فوقه دعوة ربه فكان الذكر للجذع حياة ، وكان قرب رسول الله ﷺ للجذع حياة ، وكان وجوده فى المسجد النبوى الشريف حياة .

حياة أكسبت الجذع مشاعر فياضة ، وسعادة منقطعة النظير ، لكنها انقلبت مرارة ولوعة وأنينا حين تحولت تلك السعادة إلى المنبر الذى اتخذه الرسول للجذع بديلاً ، ففاضت مشاعر الجذع حسرة وألماً وانطلقت المرارة صيحة أم ثكلى ، فقدت وحيدها فى أحوج ما تكون إليه حين نضب النبع ويبس العظم ، واحدودب الظهر وجف ينبوع الحياة ، صاحت النخلة حتى كادت تنشق من هول ما قاست من فراق رسول الله ﷺ جذع يحزن ويتألم

---

(١) البخارى ، باب النجار ، كتاب البيوع .

ويصبح وينفطر إنفطاراً ؟ .

وما الغرابة فى هذا إن كان من أجل رسول الله ﷺ ؟ ، إن المؤمن قد علمه إيمانه أن لكل مخلوق من مخلوقات الله حياة وإدراك ومشاعر ، بصورة تقترت أو تبتعد عن إدراك الإنسان وشعوره ، ولكنها موجودة حتي فى الجمادات ذلك أننا نؤمن بقول الله تبارك وتعالى وصدق الله القائل : ﴿ **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً** ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

كل شيء يقر بوجود الله تقدست ذاته حتى الجمادات قد أدركت أن لها رباً خالقاً فعبدته وسبحت بحمده وقدست له إلا كفرة الإنس والجن جحدوا وظلموا فحق عليهم العذاب بما كسبت أيديهم الآثمة ، وقلوبهم الصدئة ، ولهذا فحجر أصم ملقاً بفلاة الأرض أفضل فى ميزان الله من كل كفرة الأرض ومشركيها وإن ارتقوا ذروة المناصب الدنيوية وذاع صيتهم شرقاً وغرباً ﴿ **إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً** ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان : ٤٤] .

نعم ، إن للجماد عالمه الخاص ، وأحاسيسه التى يجهلها الإنسان لقلة علمه وقصور إدراكه غير أن الله سبحانه وتعالى قد أطلعنا على شيء من هذا العالم المغيب عن إدراكنا بقوله عز من قائل : ﴿ **فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ** ﴿٢٩﴾ ﴾ [الدخان : ٢٩] ، السماء والأرض تحزن وتتألم وتبكى بأحيائها وجماداتها وذرات ثراها إذ تفتقد بفقد المؤمن صلاته وتسبيحه وخطاه إلى الخير ومرضاة الرب .

أما الظالمين المتعالين المتجبرين من كفرة الإنس والجن تستريح بموتهم من ظلمهم وبغيهم إذ كانت تنوء بثقل بغيهم .

مشاعر لا ندركها نعم وإنما نؤمن بها إيماننا بمبلغنا إياها ﷺ ، كان

حقيق بالجذع إذاً أن يصيح فرقاً لهجره رسول الله ﷺ إياه إلى المنبر ولا غرابه في هذا ولا غرابة أيضاً أن يسمع صياح الجذع كل من فى المسجد لأنه ليس جزِعاً على مؤمن عادى ، إنما هو رسول الله ﷺ فكان التعبير بقدر الألم .

صاح الجزع حتى كاد أن ينشق ، وحق له أن يصيح وحق له أن ينشق شوقاً للنبى ﷺ ، وخوفاً أن يكون رسول الله ﷺ قد وجد عليه ، لشىء ما ، وألماً ألا يَشْرُفَ بعد بكونه منارة تبليغ الدعوة ، ومرتقى رسول الله ﷺ وجذعاً ألا يبث من فوقه الأمة مقتضيات رسالة التوحيد .

أشفق رسول الله ﷺ على الجزع المتصدع ، فنزل إليه فاحتضنه احتضان أم رحيمة حنون لطفلها الملتاع الحزين فسكن من ألمه وهدأ من روعه وأمنه بعد الخوف والإلتياع .

ما أسعدك وما أكرم أيها الجذع الموفور الكرامة ، أى رحمة تلك التى احتوت كل مخلوقات الله حتى الجمادات ؟ ، واحتضنت كل حزانى العالم حتى الجذع اليابس ، وأثرت كل المشاعر النظيفة فى وجدان الأمة ، واحترمت كل المشاعر المنبعثة حتى من الجمادات ؟ ، إنها الرحمة المهداه ، إنه محمد رسول الله ﷺ ، ما أحوج الأمة إلى الإهتداء بهديه القويم ، والتخلق بأخلاقه الفاضله ﷺ .

هكذا علمنا ﷺ كيف نحترم مشاعر كل ما حولنا حتى الجمادات ، هكذا علمنا كيف تكون شفافية الإحساس ونوارنية الإدراك .

المبحث الثانى

هذا جبل يحبنا ونحبه

لقد علمنا رسول الله ﷺ كيف نرتقى بملكاتنا فنرى بالقلوب ولا تراه العيون ، ونسمع بالعقول ما لا تسمعه الآذان ، ونلمس بالوجدان ما لا تلمسه الأيدى ، ونتذوق بالمشاعر ما لا يتذوقه اللسان ، هكذا علمنا ﷺ أن طينية الإنسان ما هى إلا وعاء ، مجرد وعاء أما قيمته الحقيقية ففيما يضمه الإناء .

لهذا فقد كان رسول الله ﷺ يحيى فى الأمة المشاعر السامية ويغرس فيها القيم العالية ويربطها بروابط الألفة والمحبة مع كل ما حولها ومن حولها من موجودات وها هو أنس بن مالك رضي الله عنه يقول : خرجت مع رسول الله ﷺ إلى خيبر أخدمه ، فلما قدم النبى ﷺ راجعا وبدا له أحد قال : « **هذا جبل يحبنا ونحبه** »[1] .

ما أروع أن يتناغم الكون كله فيعزف أنشودة محبة وربيع حياة ، ما أروع أن يرتبط الإنسان بمشاعر الصفاء والود والألفة ، ويتبادلها مع كل مخلوقات الله .

إن الشمائل إن رقت يكاد بها ... يُغرّى الجماد ويغرى كل ذى نسم[2]

مما أروع أن يفيض الإنسان محبة ورحمة وحناناً على الكون ويستشعر منه نفس الحب وينعم منه بالرحمة والحنان ، حينها ، وحينها فقط يصبح حقاً إنسان .

ما أحوج الأمة أن تستيقظ مشاعرها أن تستيقظ الرحمة فى قلوب المؤمنين

---

(١) البخارى ، باب فضل الخدمة فى الغزو ، كتاب الجهاد والسير

(٢) شوقى

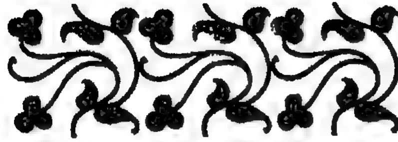
لا من أجل أن تحتضن الجمادات وتسكّن من آلامها ، فالبون بيننا وبين تلك المنزلة شاسع والبعد عظيم إنما من أجل أن تحتضن قلوبنا آلام الأمة .

من أجل أن تحتضن مشاعرنا أحزان الأمة .

من أجل أن تضمد عقولنا جراحات الأمة .

من أجل أن يحقن إيماننا دماء الأمة النازفة صباح مساء .

من أجل أن يحفظ إيباؤنا كرامة الأمة المهدرة ليل نهار .



الفصل التاسع

أ - ثمرة التربية النبوية .

ب - رحماء فى مدرسة الرسول ﷺ .

المبحث الأول : لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام .

المبحث الثانى : لا تسبوه ولا تضربوه ، وإنما عظوه وبصروه .

المبحث الثالث : ما كنت لأفعل ذلك .

المبحث الرابع : أقروا الفسطاط حتى تطير فراخها .

المبحث الخامس : فضمه إلى نفسه .

المبحث السادس : يا ابن أخى : إن لى إليك حاجة .

أ - ثمرة التربية النبوية

عاش رسول الله ﷺ بين أصحابه قرآنا حياً نابضاً ، سُوَرُه منهج حياة ، آياته أخلاق فاعلة وقيم متحركة عامله ، وحروفه نور يخط فى وجه الزمان أكمل صورة لأعظم إنسان ، صورة حقيقية ليست نتاج أمنية قلب أرهقته الإخفاقات والأحزان ، ولا حلم فكر أتعبته النقائص والمتناقضات ، ولا إبداعات ريشه تهيم فى عالم الأمانى والمثاليات ، إنما تلك « الصورة المتكاملة ، وجدت بالفعل فى واقع الأرض متمثلة فى رسول الله ﷺ ، ومحمد رسول الله بشر يحمل كل طبائع البشر ، ولا نقصد بذلك أن أحداً من البشر ، سيصل به التهذيب فى حدود أنه بشر ، وأنه إذا استحال على الناس أن يصلوا إلى تلك القمة التى لم يصل إليها أحد فى تاريخ البشرية كله من الأنبياء وغير الأنبياء ، فإنهم بالأسوة الحسنة فى شخصه ﷺ يستطيعون - فى بعض جوانبه على الأقل - وفى حدود ما وهب الله لهم من طاقة أن يقتربوا من هذه القمة الشامخة درجات من الاقتراب ، وهذا هو المستوى الأعلى الذى تحقق فعلاً على نطاق غير ضيق فى أشخاص الصحابة والتابعين ، وفى أشخاص متناثرين على مدار التاريخ .

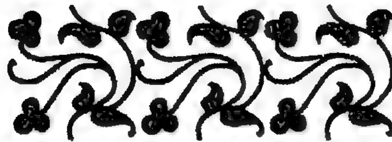
وإذاً فهذا المستوى الأعلى ممكن فى هذه الحدود ، وكل درجة يقتربها الإنسان من هذه القمة الشامخة فهى عظمة تحسب له فى ميزان الله وميزان البشر على السواء .

كل قوة فى الحق ، كل تضحية فى سبيل الله ، كل صدق وأمانة وإخلاص واستقامه كل رحمة شفيقة ، كل مودة وحب ، كل عمل للخير ، كل حسٍ مرهف وسلوك مهذب ، كل قوة حيوية دافعة ، كلها ما دامت مخلصة لله تحسب فى ميزان العظمة ويكتب لها البقاء ، وتلك ثمرة التربية فى

واقع الأرض .

وفى التاريخ أمثله لا تعد لهذه العظمات النفسية التى رباها الإسلام ، كانت أبرزها تلك الفترة التى انطلقت فيها الأمة الإسلامية الناشئة المصنوعة على عين الله ورعاية رسوله ، تعمل فى كل ميدان ، وتكتب العظمات فى كل صفحة من صفحات الحياة ، ثم قلت النماذج شيئاً فشيئاً ، ولكنها لم تنقطع قط عن الوجود فى كل صحوة من إغفاءه وفى كل هبة من انتكاسه أولئك الذين حققوا المثال ، حققوه بقدر ما وهب الله لهم من طاقة وبقدر ما استطاعوا أن يبذلوا من جهود » (١) .

خلفت جيلاً من الأصحاب سيرتهم ... تصوغ بين الورى روحاً وريحاناً
كانت فتوحتهم براً ومرحمة ... كانت سياستهم عدلاً وإحساناً
لم يعرفوا الدين أوراداً ومسبحة ... بل أشبعوا الدين محراباً وميدانا (٢)



---

(١) منهج التربية الإسلامية .
(٢) شوقى

ب - رحماء في مدرسة رسول الله ﷺ

المبحث الأول : لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام :

عن ابن عمر قال : قدمت المدينة رفقة من التجار فنزلوا المصلى فقال عمر لعبد الرحمن : هل لك أن تحرسهم الليلة من السرق ؟ فباتا يحرسانهم ويصليان ما كتب الله لهما ، فسمع عمر بكاء صبي فتوجه نحوه فقال لأمه : اتقي الله وأحسني إلى صبيك ، ثم عاد إلى مكانه فسمع بكاءه فعاد إلى أمه فقال لها مثل ذلك ، ثم عاد إلى مكانه ، فلما كان من آخر الليل سمع بكاءه فأتى أمه فقال لها : ويحك إني لأراك أم سوء ، ما لي أرى ابنك لا يقر منذ الليلة ؟ ، قالت : يا عبد الله ، قد أبرمتني منذ الليلة ، إني أريغه على الفطام فيأبى ، قال : ولم ؟ قالت : لأن عمر لا يفرض إلا للفُطم ، قال : وكم له ؟ قالت : كذا وكذا شهراً ، قال : ويحك لا تعجليه ، فصلى الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء ، فلما سلم قال : يا بؤساً لعمر ، كم قتل من أولاد المسلمين ثم أمر منادياً فنادى أن لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام ، فإنا نفرض لكل مولولد في الإسلام وكتب بذلك إلى الآفاق .

المبحث الثاني : لا تسبوه ولا تضربوه وإنما عظوه وبصروه :

طفق أبو الدرداء يؤم مجالس الناس في « دمشق » ويطوف بأسواقهم فيجيب السائل ويعلم الجاهل ، وينبه الغافل ، مغتنماً كل فرصة مستفيداً من كل مناسبه ، فها هو ذا يمر بجماعة قد تجمهروا على رجل وجعلوا يضربونه ويشتمونه فأقبل عليهم وقال : ما الخبر ؟ فقالوا : رجل وقع على ذنب كبير ، فقال : أرأيتم لو وقع في بئر أفلم تكونوا تستخرجونه منه ؟ قالوا : بلى ، قال : لا تسبوه ولا تضربوه وإنما عظوه وبصروه واحمدوا الله الذي عافاكم من الوقوع

في ذنبه ؟ قالوا : أفلا نبغضه ؟ قال : إنما أبغض فعله فإذا تركه فهو أخي ، فأخذ الرجل ينتحب ويعلن توبته ... .

وفي أثناء إقامة أبي الدرداء بدمشق بعث إليه واليها معاوية بن أبي سفيان يخطب ابنته الدرداء لابنه يزيد ، فأبى أن يزوجها له وأعطاها لشاب من عامة المسلمين رضي دينه وخُلقه ، فسار ذلك إلى الناس وجعلوا يقولون : خطب يزيد بن معاوية بنت أبي الدرداء فرده أبوها وزوجها لرجل من عامة المسلمين ، فسأله سائل عن سبب ذلك فقال : إنما تحريت فيما صنعته صلاح أمر الدرداء فقال : وكيف ؟ فقال : ما ظنكم بالدرداء إذا قام بين يديها العبيد يخدمونها ووجدت نفسها في قصور يخطف لألاءها البصر، أين يصبح دينها يومئذ؟ [(١)] .

يا لها من رحمة لا يدركها إلا الراحمون الصادقون الفطناء .

المبحث الثالث : ما كنت لأفعل ذلك :

وهذا خبيب بن عدي رضي الله عنه قد وقع بيد الغدر أسيراً « فابتاع بنو الحارث بن عامر بن نوفل خبيباً وكان خبيب هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر فلبث عندهم أسيراً حتى أجمعوا على قتله ، فاستعار من بعض بنات الحارس موسى يستحد بها فأعارته ، فدرج بُنيٌّ لها وهي غافلة حتى أتاه فوجدته مجلسه على فخذه والموس بيده.قالت: ففزعت فزعة عرفها خبيب فقال : أتخشين أن أقتله ؟ ما كنت لأفعل ذلك ، قالت : والله ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب » [(٢)] .

وكان يمكن لخبيب رضي الله عنه أن يقتل الطفل انتقاماً من أهله إذ هو مقتول لا محالة ، كان يمكن له أن يأخذه رهينة يستنقذ بها حياته من بين أيديهم لكنها الرحمة قد حالت بينه وبين مجرد فكرة أن يأخذ طفل برئ بجريرة أهله ، إنها

---

(١) صور من حياة الصحابة

(٢) المصدر السابق

الرحمة التي غرس رسول الله ﷺ بذورها في قلوب صحابته الكرام ، فأنبتت وأورقت حتى استظل بها كرام التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

المبحث الرابع : أقروا الفسطاط حتى تطير فراخها :

« على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحتضن بيضها

الشمس والقمر والنجوم ، كلها أصغر في عينيها من هذا البيض

أيتها اليامة : لم تعرفي الأمير وترك لك فسطاطه

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحتضن بيضها

يمامه سعيدة ستكون في التاريخ كهدهد سليمان

نسب الهدهد إلى سليمان ، وستنسب اليمامة إلى عمرو »[(١)] .

أبيات رقيقة مترجمة عن اللغة المصرية القديمة « القبطية » روتها للتاريخ أرمانوسه ابنة المقوقس ملك مصر ، فما قصة تلك الأبيات التي تنساب رقة ورحمة ؟ .

أشرقت شمس الحقيقة وجمالها على الكنانة حين أراد الله سبحانه وتعالى بها الخير ، فأهداها نور الحق على يد عمرو بن العاص رضي الله عنه ، حيث أتى يحمل إليها روعة الإسلام بعدله ورحمته ويدفع عنها قهر الروم بظلمهم وعشمهم وقسوتهم .

وبنى عمرو رضي الله عنه فسطاط « خيمة » ليتخذها مقراً لإقامته ومركزاً لقيادة جنده الأطهار .

وفر الروم إلى الأسكندرية فرار الظلام المقيت أمام النور الباهر الصبوح ، حينها سار عمرو بجنوده إلى الأسكندرية ملاحقاً الروم وأمر بهدم الفسطاط

---

(١) وحي القلم « م ١ » مصطفى صادق الرافعي

«وشاع الخبر أنه لما أمر بفسطاطه أن يقوض أصابوا يمامة قد باضت فى أعلاه فأخبروه فقال : قد تحرمت فى جوارنا ، أقروا الفسطاط حتى تطير فراخها ، فأقروه » (١) .

إنها الرحمة فى قلب رباه نبى الرحمة ﷺ ، قد أبقت فسطاطاً عظيماً لأجل يمامة وبيضها !! .

فلك الله أيها الأقصى الحزين ، وقد كبلتك الأفعى المقيتة ، التى تبتلع فى وحشية شيطانية أفرخك الزغب المفزّعين .

لك الله حين لا عمرو لك .

ولك الله حين لا عمر لك .

ولك الله حين لا صلاح الدين لك .

لك الله ، فهو لا يعجزه سبحانه أن ينبت لك ألف عُمرٍ وألف عَمْرٍ وألف صلاح الدين .

المبحث الخامس : فضمه إلى نفسه :

قال محمد بن زكريا الغلاب شهدت عبد الله بن محمد بن عائشة ليلة وقد خرج إلى المسجد بعد المغرب يريد منزله وإذا فى طريقه غلام من قريش وقد قبض على امرأة فجذبها فاستغاثت فاجتمع الناس عليه يضربون فنظر إليه ابن عائشة فعرفه فقال للناس : تنحوا عن ابن أخى ، ثم قال : إليّ يا ابن أخى فاستحى الغلام فجاء إليه فضمه إلى نفسه ؟ ثم قال له : امض معى ، فمضى معه حتى صار إلى منزله ، فأدخله الدار وقال لبعض غلمانه : بيّته عندك فإذا

---

(١) المصدر السابق

أفاق من سكره فأعلمه بما كان منه ولا تدعه ينصرف حتى تأتيني به ، فلما أفاق ذكر له ما جرى فاستحيا منه وبكى ، وهم بالإنصراف فقال الغلام : قد أمر أن تأتيه ، فأدخله عليه فقال له : أما استحييت لنفسك ؟ أما استحييت لشرفك ؟ أما ترى من ولدك ؟ فاتق الله وانزع عما أنت فيه ، فبكى الغلام منكساً رأساً ثم رفع رأسه وقال: عاهدت الله تعالى عهداً يسألني عنه يوم القيامة: أني لا أعود لشرب النبيذ ولا لشيء مما كنت فيه وأنا تائب فقال : ادن مني ، فقبل رأسه وقال : أحسنت يا بني فكان الغلام بعد ذلك يلزمه ويكتب عنه الحديث وكان ذلك ببركة رفقه » (١) .

المبحث السادس : يا ابن أخي : إن لي إليك حاجة :

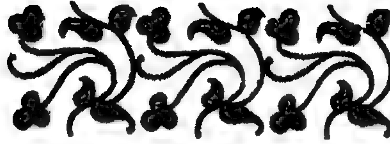
صلة بن أشيم رحمة الله تابعي جليل عابد زاهد راهب بالليل فارس بالنهار « لا يدع سانحة من سوانح الموعظة والتذكير إلا اغتنمها وكان أسلوبه في ذلك أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، فيستميل النفوس النافرة ، ويستلين القلوب القاسية ... من ذلك أنه كان يمضي ذات نهار في ثلة من أصحابه إلى غاية لهم فمر بهم شاب رائع الشباب ، ريان الصبا ، قد أطال إزاره حتى جعل يجره على الأرض جر الخيلاء ، فهم أصحابه بالشاب ، وأرادوا أن يأخذوه بألسنتهم وأيديهم ، أخذاً شديداً ، فقال لهم صلة : دعوني أكفكم أمره ، ثم أقبل على الشاب وقال في رفق الأب الشفيق ونبرة الصديق الحميم : يابن أخي ، إن لي إليك حاجة فتوقف الفتى وقال : وما هي يا عم ؟ فقال : أن ترفع إزارك فإن ذلك أنقى لثوبك وأتقى لربك ، وأدنى لسنة نبيك ، فقال الفتى في خجل : نعم ونعمة عين ، ثم بادر ورفع إزاره ، فقال صلة

---

(١) الإحياء .

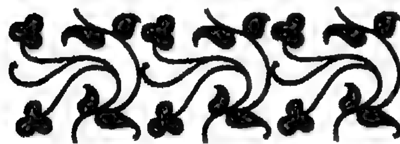
لأصحابه : إن هذا أمثل مما أردتم ولو أنكم ضاربتموه وشاتمتموه لضاربكم وشاتمكم وأبقى إزاره مسدلاً يمسح به الأرض »[١] .

إنها دعوة مخلصة صادقة لتخلق دعاة الحق وهداة الركب بالرحمة والرفق واللين وإنها لمن مقومات الداعية الصادقة الأمين .



(١) صورة من حياة الصحابة .

الفهـرس

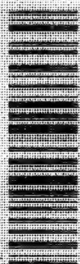


من أحدث إصداراتنا

مجموعة

واحة الأخلاق العظيمة





دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع
١٢ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٣٢٦٩ - تليفون: ٥٤٤٦٤٩٦
E-mail: dar_aleman@hotmail.com